الفصل الرابع عشر

الشرق العربى فى القرن الثاسع عشر

.... وكنا قد تركنا الشرق العربى يغط فى نوم عميق ، ورحلنا إلى الغرب لنتتبع يقظته عن كثب . ثم بدأ الشرق العربى يصحو مع فجر القرن التاسع عشر . ومن حقه علينا أن نعود إليه وإلى بعض رواده من المفكرين .

ومن أقوال الرحالة الذين زاروا مصر والشام فى أواخر القرن الثامن عشر تتضح لنا حقائق كثيرة عن الجهل العام الذى ساد البلاد فى شتى مناحى أنشطتها بل شمل الركود فى جوانبه العلم فى الأزهر . ويرجع أن الهيئات التى تولت حكم مصر والاحتفاظ بها إيالة عثمانية (وهى الباشا والديوان والمماليك) التفتت إلى أطماعها وتزاحمها على السلطة ، ولم تلق اهتماماً بأحوال الرعية وثقافتهم . بل إن القوة العثمانية وقفت سداً أمام اتصال المصريين بحضارة الغرب وأضعفت البلاد حربياً ، كما أن مصر فقدت شطراً كبيراً بتحول التجارة عنها.. وزاد الأمر سوءاً سيطرة أفكار الدروشة والتصوف على عقول الكثيرين من أهل مصر ... فطالت المسابح المدلاة من الأعناق ، وتلونت العمائم والملابس الفضفاضة ، وارتفعت بيارق ، ودقت الدفوف ، وكثرت حلقات الذكر ... وفى الغرب معامل تختبر ، ومصانع تعمل ومطابع تخرج الكتب الكثيرة الغنية الغزيرة .

ثم حدث اتصال بين بعض علماء مصر وعلماء الفرنجة بعد أن فتح بونابرت مصر ، وكان من هؤلاء العلماء عبد الرحمن الجبرتى والشيخ حسن العطار والشيخ إسماعيل الخشاب .. وغيرهم . وقد أسفر الاحتكاك مع عقليات غربية عن مفاهيم مغايرة وبداية نمو لاتجاهات فى التفكير احتاجت عشرات السنين حتى تتبلور عند بعض قادة الفكر والرأى . وكان الاحتكاك على أرض مصر فى ظروف ضيقة وإمكانات محدودة . ثم اتسعت الآفاق بدراسة المصريين فى أوروبا بعد الربع الأول من القرن التاسع عشر.

وعاد المبعوثون ليسهموا فى رقى بلدهم ، ونبغ منهم الكثيرون وتعلم من أهل البلد عليهم كثيرون . وكانت بداية انطلاقة .

وقد يرى المؤلف خيراً فى عرضه بعض الاتجاهات التربوية التى نادى بها ثلاثة من المفكرين فى القرن التاسع عشر فى مصر .

رفاعة رافع الطهطاوى

هو السيد رفاعة بن بدوى بن على ... بن رافع المولود فى طهطا من أعمال مديرية جرجا عام ١٨٠١ ، وهى السنة التى جلا فيها الفرنسيون عن مصر . ويعود نسبه من ناحية أبيه إلى الحسين بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه السلام .

ودرس رفاعة فى الأزهر مدة خمس سنوات ختم فيها دروسه وأصبح أهلا للتدريس ، فدرس فى الأزهر ... « وقد كان رفاعه منذ عهده الأول مدرساً ممتازاً ، فأقبل عليه الطلاب وأفادوا منه ، وكانت حلقات دروسه فى السنتين التاليتين لتخرجه حافلة دائماً بالمستمعين من التلاميذ والمشايخ ... » (١) .

وقد رشح الشيخ العطار تلميذه رفاعة إماماً لإحدى فرق الجيش الجديدة ، ثم رشحه إماماً للبعثة الموفدة إلى فرنسا . وذهب الشيخ رفاعة إلى باريس ، ولم تكن النية متجهة إلى أن يدرس إمام البعثة إلا أنه انكب على الدرس والتحصيل وتعلم اللغة الفرنسية حتى أجادها ، وكانت دراسة رفاعة فى الترجمة وأمضى خمس سنوات كاملة ترجم خلالها الكثير من الكتب والنبذ والقطع والمقالات ، وجاز امتحان الترجمة عائداً إلى أرض وطنه بعد أن عاش فى أرض غريبة أثرت حتما على قيمه واتجاهاته . فقد اختلط بأقوام مختلفين وعادات غير مألوفة لديه ، وأنماط كان لها أثر كبير فى حياته بين قومه . ولكن لم تؤثر إقامة الطهطاوى فى عاصمة فرنسا أدنى تأثير على عقائده ، ولم تغير من أخلاقه الإسلامية وعوائده الشرقية ، كما يذكر ذلك على مبارك فى خططه (٢)

(١) جمال الدين الشيال : رفاعه رافع الطهطاوى ، ص ٢٢

(٢) على مبارك : الخطط التوفيقية ، الجزء ١٣ ، ص ٥٤

ومن بين ما كتب الطهطاوى عن الحياة الفرنسية فى كتابه « تخليص الأبريز إلى تلخيص باريز » يذكر رأيه فى المرأة الفرنسية ، وأنه لا يعترض على السفور مؤمناً بأن الصلاح ينشأ من التربية الصالحة والفساد من التربية غير الصالحة . ثم هو يقول إن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات إلى المرتبة الوسطى من الناس ، دون نساء الأعيان والرعاع . فنساء هاتين المرتبتين تقع عندهن الشبهة كثيراً ، ويتهمن فى الغالب . ثم يرى رفاعة إن وجود المرأة الفرنسية فى المجتمع تكسبه جمالا وتضفى عليه بهجة وأنساً وحياة . ويعيب رفاعة على الفرنسيين انتشار الفواحش والبدع والاختلالات وأن لهم عقائد قبيحة وشنيعة كإنكار بعضهم القضاء والقدر . ويذكر أن أكثر الفرنسيين لهم من دين النصرانية الاسم فقط ... فلا يعتنون بما حرمه دينهم أو أوجبه أو نحو ذلك .

وعين رفاعة مترجماً فى مدرسة الطب ثم نقل إلى مدرسة الطوبجية بطرة حيث ترجم فى الهندسة والجغرافية . وقد اقترح رفاعة إنشاء مدرسة للترجمة لسد حاجة البلاد من المترجمين والموظفين ليتم الاستغناء عن الأجانب ، فأنشئت سنة ١٨٣٥ مدرسة الترجمة وغير اسمها إلى مدرسة الألسن (١) . وكانت الدراسة بها خمس سنوات يترجم فيها الطلبة كتباً فى التاريخ والأدب وتطبع الترجمات الصالحة .

ويقال إن الشيخ رفاعة كان على علاقة طيبة بمحمد على وابنه إبراهيم ، فلما مات إبراهيم وتولى عباس الذى كان يكره هذه العلاقة فاستبعده إلى السودان وظل بها حتى جاء سعيد فعاد إلى القاهرة . ويقال أيضاً إن على مبارك إثر عودته من أوروبا إبان حكم عباس ضايقه المركز الذى يحتله الشيخ رفاعة وطمع فى المنزلة التى ينالها حتى أقصاه عباس . وكان سعيد يكره ما فعله عباس فأعاد الشيخ رفاعة إلى القاهرة . وأمطره الشيخ قصائد يمدحه فيها ويعدد صفاته الحميدة ومآثره النبيلة ، ومع ذلك فان سعيداً أصدر أوامره

(١) وكان مكانها بيت الدفتر دار بحى الأزبكية .

فى ١٨٥٥ بالغاء ديوان المدارس وتصفية ما فيه . ويقال إن رفاعة كان قد اشترك مع إبراهيم أدهم بك فى تخطيط لتعليم كافة أفراد الشعب ، ولكن انشغال سعيد بمشروع قناة السويس وغيرها من المشروعات كاصلاح الجيش قتل التخطيط . ثم عين الشيخ رفاعة ناظراً للمدرسة الحربية بالقلعة وأصبح أمير الايا ، وصار يدعى رفاعة بك بدلا من الشيخ رفاعة ... وعاوده الحنين إلى مدرسة الألسن وأيامها فأمسى يعدل فى مناهج المدرسة الحربية حتى أنشأ بها قلماً للمحاسبة وآخر للترجمة ولبعض اللغات . وانكب على عمله فى نشاط حتى عهد إليه بنظارة مدرستى الهندسة الملكية والعمارة وتفتيش مصلحة الأبنية ، ثم أشرف على الترجمة وعلى إحياء المؤلفات القديمة ونشرها . ولكن المدرسة أقفلت بعد خمس سنوات من إنشائها أى سنة ١٨٦١ وعاد رفاعة إلى حياة بلا عمل ، بعد أن وضع لبنات الترجمة والنشر . فما كان أقوى غرام حكومة ذلك العهد برؤية العلماء عاطلين (١) .

ومع تولى الخديو اسماعيل عاد رفاعة إلى العمل وكان قد جاوز الستين من عمره فقد أعيد قلم الترجمة ، و أسندت نظارته إلى رفاعة الذى عين أيضاً عضواً فى قومسيون المدارس ، و أسندت إليه كذلك رئاسة مجلة روضة المدارس التى أنشأها على باشا مبارك مدير المدارس سنة ١٨٧٠ ، وهى مجلة علمية أدبية اجتماعية . وقد التحق بالتحرير فيها عبد الله فكرى بك للعلوم العربية والفنون الأدبية ، وبروكش ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم وخص بالتاريخ ، وإسماعيل الفلكى بك وعهد إليه بالفلك ، ومحمد قدرى أفندى للجغرافية والأخلاق والعقائد ، وأحمد أفندى ندا وعهد إليه ببيان المواد النباتية . والشيخ عثمان مدوخ ، وطلب منه إمداد المجلة بغرائب النوادر والضحكات والألغاز والأحاجى والنكات (٢) ... وكان يلحق بكل عدد من المجلة كتاب يؤلف لها ، مثل كتاب « حقائق الأخبار فى أوصاف البحار »

---

(١) من محاضرة ألقاها محمد جلال الدين الرافع عن جده ، ص ٢٦

(٢) من افتتاحية العدد الأول للمجلة فى : أحمد بدوى (المرجع الأسبق) ، ص ٧٢

لعلى مبارك باشا ، وكتاب « آثار الأفكار ومنثور الأزهار » لعبد الله فكرى ، وكتاب « الصحة التامة والمنحة العامة » لمحمد بدر مدرس الأمراض الباطنية بالمدرسة الطبية ... الخ .

وانتهت حياة رفاعة بك فى سنة ١٨٧٣ بعد أن عاش حياة حافلة متمتعاً بصحة جيدة وأعصاب قوية حتى ألمت به آلام النزلة المثانية . وشيعت مصر كما تشيع عظيماً قدم لها من علمه وإخلاصه ما جعلها تخلده فى سجل العظماء .

آراؤه فى التربية

تولى رفاعة الطهطاوى مناصب عدة مرتبطة بالمسائل التربوية والتثقيفية ، تفاوتت من التدريس فى إبتدائية الخرطوم ونظارتها إلى إدارة المدرسة الحربية وتخرج فيها ضباط أركان الحرب ، « ومدرسة الألسن » وكانت المورد لموظفى الدولة والتى تحولت فيما بعد إلى مدرسة للمعلمين ، كما قام بدور كبير فى تنظيم تدريس اللغة العربية بالمدارس فكان يمتحن الفقهاء والشيوخ ليتخير منهم الأكفاء لوظائف التدريس. وكان يزور المدارس ليتفقد أعمال المدرسين ويختبر كفايتهم . وكان يرى أن مدرسى اللغة العربية من الأزهر يجب أن ينهجوا فى التعليم مناهج جديدة ، وأن يتلقوا علوماً جديدة ، ويدرسوا أساليب فى التربية جديدة تؤهلهم لعبء القيام بعملهم فى المدارس الحكومية .

ومن كتابات ومؤلفات رفاعة بك يستخرج الدارسون آراءه فى التربية كما ورد ذكرها فى كتبه ومنها :

— تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز .
— المرشد الأمين للبنـــات والنبين .
— مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية .

١ — فى التربية ومعناها : يعرف رفاعة التربية بأنها فن تنمية الأعضاء الحسية والعقلية ، وطريقة تهذيب النوع البشرى ، ذكراً كان أو أنثى ، على طبق أصول مطلوبة ، يستفيد منها الصبى هيئة ثابتة يتبعها ، ويتخذها عادة

وتصير له دأباً وشأناً وملكة (١) .

وفى هذا التعريف يتكلم رفاعة عن أن التربية عملية نمو وتعمل على تكوين اتجاهات صالحة للفرد تؤثر فى سلوكه وتصرفاته . ويضيف رفاعة إلى ذلك بقوله إن تغذية الطفل تتم على ثلاثة أضرب ، الضرب الأول هو تغذيته بالطعام لكى ينمو جسمه ، والضرب الثانى تغذية خلقه بتعويده العادات والطباع المرغوبة ، والضرب الثالث تغذية عقله بتعليم المعارف وألوان العلوم . وبهذا يجمع رفاعة بين التربية الجسمية والعقلية والخلقية . ويرى أن الأمة السعيدة هى التى أحسنت تربية بنيها . فان تربية الأفراد تربية حسنة سوف يؤدى إلى النهوض بالهيئة الاجتماعية .

٢ — فى نفسية التلميذ : يقول رفاعة إن على ولى الأمر أن يتأمل حال الصبى ليرى ما هو مستعد له من الأعمال ، وحتى يستطيع أن يوجهه التوجيه الصالح . ولا يحمله على غير ما هو مستعد له . ويرى أن التربية الصحيحة هى تلك التى تلائم استعداد الطفل فتعمل على استغلال ذلك الاستعداد لنأخذ بيده حتى ينضج (٢) .

ويرى رفاعة أن التنافس صفة إنسانية تبعث طالب العلم على أن يجتهد كل الإجتهاد ليفوق الأقران ، أو يساويهم ، وأن يستقرىء ، ويبحث عما يفعلونه من الحسن والطيب ، والملائم ، ليشارك الأقران فيه ، ويبرع فيه بجودة فهمها ودقة نظره . فالتنافس فى رأيه غيرةمحمودة وغبطة معهودة ، مركوزة فى جميع النفوس الزكية . ويدافع رافع عن التنافس فيقول .. « وربما ظهر ببادىء الرأى أن التنافس رفيق الطمع ، وشقيق الحسد ، وأن المتمسك به غير سالك فى السبيل الأسد . مع أنه ليس فيه شىء من هاتين المثلبتين ، بل بينه وبينهما بون بعيد فى الأثر والعين ، إذ ليس الغرض من التنافس حصر

---

(١) رفاعة رافع الطهطاوى : المرشد الأمين للبنات والبنين ، ص ٥

(٢) المرجع السابق ، ص ٨

الفضل فى صاحبه ، ولا الاختصاص بمكاسبه ومواهبه . بل مجرد التقدم فى المعارف ، والدخول مع الأقران فى ميدان السباق ، ليبادر كل منهم ، بالسعى واللحاق . فبهذا يحسن حال المعارف البشرية . وتبلغ درجة الكمال » (٢) .

ويرى رفاعة أن الأطفال مختلفون فى الذكاء . وأن التربية الموحدة لا لا تستطيع أن تسوى بينهم فى الذكاء . لأن ذكاءهم يختلف باختلاف الاستعداد الغريزى . ويرى أن الذكاء الكامل إذا صحبته التربية الرشيدة كان عظيم النجاح فان صحبته التربية المتوسطة ، كان يسير النتيجة ، لا يبلغ صاحبه الدرجة المنشودة .

٣ — فى أخلاق المتعلمين : يرى رفاعة أن الأثرة خصلة دنيئة يجب أن يتخلص منها الأطفال فهى منبع الحرص والطمع ، ويرى أن يعلم الطفل ، ذكراً كان أو أنثى ، من بواكير الطفولة العقائد الدينية الدالة على وجود الله ووحدانيته ، ويرى أن تسير التربية الدينية جنباً إلى جنب مع تربية الطفل المعاشية . ولا ينصح رفاعة بتوبيخ الطفل إذا خالف أصول الأدب فى بعض الأوقات ، بل لا يكاشف بأنه أقدم عليه ، هذا فى أول أمره ، وفى المرة الثانية فيوبخ الطفل سراً ، لأنه إذا تعود التوبيخ والمكاشفة أدى ذلك إلى أن يكون وقحاً ويهون عليه سماع الملامة فى ركوب القبائح (٢) .

ويحترم رفاعة صفات الأنوثة عند البنات وهى التى اختصت بها دون الرجل ، والتى تتزين بها ، وهى صفة الحياة والخوف والوجل ، فان المرأة لم تخلق لتحرز شجاعة الرجل ، ولكن لتحمل الرجال على الشجاعة .

٤ — فى مراحل التعليم وأهدافها : يقسم رفاعة التعليم إلى مراحل ثلاثة (٣) :

(أ) المرحلة الأولية أو الابتدائية ، وهى مرحلة عامة يشترك فيها أولاد الفقراء والأغنياء البنون والبنات ، ويدرسون فيها القرآن الكريم وأصول الدين

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٤

(٢) أحمد بدوى (المرجع الأسبق) ، ص ٢١٥

(٣) أحمد بدوى (المرجع الأسبق) ، ص ٣٠٨ — ٣٠٩

والقراءة والكتابة والحساب ومبادىء الهندسة والنحو . ويؤمن رفاعة بأن الصانع إذا تعلم واجتاز هذه المرحلة بنجاح كان أقدر وأكمل فى إنتاجه . وينصح المعلم فى هذه المرحلة بأن ينهج أقصر الطرق فى تعليم الغلمان حتى لا يضيع عليهم وقت طويل ، وهم أحوج الناس إليه فى تعلم مهنة يكتسبون منها .

(ب) المرحلة الثانوية : ويدرس فيها التلاميذ العلوم الرياضية بأنواعها ، والجغرافية ، والتاريخ ، والمنطق ، والطبيعة ، والكيمياء ، والإدارة الملكية وفنون الزراعة . والإنشاء والمحاضرات . وبعض لغات (ألسنة) أجنبية ، ويرى أن ترغب الحكومة الأهالى فى هذا التعليم الذى يكون به تمدين جمهور الأمة . ويكون تعليم المهن على اختلاف أنواعها بعد الانتهاء من التعليم الثانوى .

(ج) المرحلة العالية : وفى التعليم العالى يتخصص الدراسون ويتبحرون فى علم مخصوص ، كعلم الطب ، والفقه ، والجغرافية ، والفلك ، والتاريخ(١) ويرى أن يكون عدد تلامذة التعليم العالى محصوراً ، وألا يباح الانتساب إليه إلا لصاحب الثروة واليسار . بحيث لا يضر تفرغه للعلوم العالية بالمملكة .

فبينما يرى رفاعة انتشار التعليم الأولى نجده يحدد ويضيق التعليم العالى ، وقد يكون هذا سليماً ، ولكن الذى نأخذه عليه أن معيار هذا التحديد كان المركز الاقتصادى ، لا القدرة العقلية والاستعداد عند المتعلمين .

٥ — فى صلة المعلم بالتلميذ : يرى أن تبنى صلة المعلم بالتلميذ على الحب والإخلاص ويتكلم رفاعة عن أن التلميذ يدعو لأستاذه كلما شرع فى قراءة درس وتكراره أو مطالعته ، وإذا فرغ من الدرس دعا لأستاذه أيضاً ، كما يدعو الأستاذ للتلميذ . ويصر على أن يحترم المعلم تلاميذه ويجريهم مجرى بنيه ، وأن يكون شغوفاً عطوفاً عليهم ، صابراً على جفائهم وسوء أدبهم . ويستنكر

---

(١) يعتبر رفاعة الطهطاوى أول مؤرخ مصرى عرف تاريخ مصر القديم على حقيقته فى ضوء ما وصلت إليه الكشوف الأثرية وما كتبه المؤرخون الأوربيون ، كما أنه من أوائل من نظروا إلى تاريخ مصر نظرة شاملة فى جملته . (أنظر جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر ، ص ٤٩ — ٨٧).

ضرب معلمى القرآن تلاميذهم الصغار ، ففى هذا خروج على حد الشرع . غير أنه يجيز للأب تأديب ابنه بالضرب ، وينصح المعلمين بترغيب الأطفال على التعلم ، ومسايرتهم باللطف والرفق وأن يأذنوا لهم باللعب فى بعض الأوقات ويكون لعباً جميلا غير متعب لهم ، ليستريحوا من عناء الدرس .

وإذا كان هذا موقف المعلم من المتعلمين . فان رفاعة يطلب من المتعلمين التأدب مع الله ومع المربين ، والتواضع والاعتقاد فيهم . ويرى أن يطيع المتعلمون المعلمين ويسمعوا أقوالهم وينتصحوا بنصائحهم .

٦ — فى طريق التدريس :

(أ) أن يبدأ المتعلم بالأهم ، ويرى أن يأخذ العلوم عن أساتذتها ، ويحذر من الاستفادة من الكتب إلا فى علم الحديث .

(ب) ألا يخرج الطالب من علم إلى غيره حتى يحكمه .

(حـ) المطارحة والمناظرة فائدتهما أقوى من فائدة التكرار .

(د) يقسم الدرس أقساماً حتى يسهل حفظه ، فهذا — فى رأيه — أدعى إلى الرسوخ فى الذهن من حفظه جملة (١) .

ويذكر أنه بعد الجولات التفتيشية التى قام بها ، أنه وجد عدم صلاحية الكتب التى بأيدى التلاميذ ، فألف كتباً جديدة ، يراها البعض أنها الخطوة الأولى فى سبيل النهضة بالكتب المدرسية فى تاريخنا التعليمى ، وكان رفاعة يسترشد بما رأى وبما درس من كتب فرنسية أثناء تلقيه العلم فى فرنسا (٢) .

٧ — فى تطوير الأزهر : وكان ابن الأزهر باراً بالمعهد الذى تخرج فيه ، فدعا إلى إدخال العلوم العصرية فيه ، قائلا إنه لو تشبث خيار أهل العلم الأزهريين بالعلوم العصرية لفازوا بدرجة الكمال ، وانتظموا فى سلك الأقدمين

---

(١) وفى هذا المعنى يقول :

يحسن حفظ اللوح للصغير على مرار ، بل وللكبير
يرسخ فى الذهن ، وليس يمحى جربه بالتقسيم وأقبل نصحاً

(٢) جمال الدين الشيال : (المرجع الأسبق) ، ص ٥٠

من فحول الرجال ... وكل من سار على الدرب وصل . فيقول ومدار سلوك جادة الرشاد والإصابة منوط — بعد ولى الأمر — بهذه العصابة (يقصد شيوخ الأزهر وطلابه) ينبغى أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنيفة ، معرفة سائر العلوم البشرية المدنية ، التى لها مدخل فى تقدم الوطنية ، من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علماء الأمة المحمدية ، فانه بانضمامه إلى علوم الشريعة والأحكام يكون من الأعمال الباقية على الدوام ، ويقتدى بهم فى اتباعه الخاص والعام حتى إذا دخلوا فى أمور الدولة يحسن كل منهم فى إبداء المحاسن المدنية قوله ، فان سلوك طريق العلم النافع من حيث هو مستقيم ، ومنهجه الأبهج هو القويم يكون بالنسبة للعلماء سلوكه أقوم ، وتلقيه من أفواههم أتم وأنظم ، لا سيما وأن هذه العلوم الحكمية للعملية ، التى يظهر الآن أنها أجنبية ، هى علوم إسلامية ، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة ، فان من اطلع على سند شيخ الجامع الأزهر الشيخ أحمد الدمنهورى رأى أنه قد أحاط من دوائر هذه العلوم بكثير ، وأن له فيها المؤلفات الجمة ، وأن تلقيها إلى أيامه كان عند أهل الجامع الأزهر من الأمور المهمة » .

وكان رفاعة حريصاً على أن يقتبس من المدارس الأجنبية الموجودة بمصر وخارجها ما يجد أنه صالح للتطبيق فى المدارس المصرية ، وكتب كثيراً فى (روضة المدارس) عن أخبار المدارس الأجنبية ونشاطها .

٨ — فى تعليم المرأة : رأى رفاعة أن المرأة من أجمل صنع الله القدير ، وهى قرينة الرجل فى الخلقة ، والمعينة له فى تدبير أمره ، والحافظة لأطفاله ، والساهرة على العناية بتدبير أمورهم ، والماسحة بيدها همومهم وآلامهم ولكنها تمتاز عنه بجسم أليف وألطف شكلا ، لا يؤهلها لأن تشاركه الأشغال الشاقة . وبنية جسمها على الرقة واللين توجب كونها ألطف من الرجل طبعاً وأرق حاشية ، فاذا انحرفت عن ذلك ، كان انحرافها ناشئاً عن ظروف التربية والبيئة .

وفى رأى الدكتور أحمد بدوى أن رفاعة ربما كان أول من نادى بتحرير المرأة من ربقة الجهل فى العصر الحديث ، ويدعم رأيه مسترشداً بكتاب الطهطاوى (المرشد الأمين) حيث يدعو إلى أن تنال الفتاة حظها من العلم ، كما يناله الفتى لأمور شتى (١) :

أولا : ما للتعليم من أثر قوى فى إسعاد بيت الزوجية ، وحسن معاشرة الأزواج ، فالتعلم يخلق التناسب والتجانس بين الزوجين ، ويجعل المرأة أهلا لمشاركة الرجل فى الكلام ، وتبادل الرأى ، ويبعدها عن سخف العقل والطيش الذى ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لامرأة مثلها ، وإن حصول المرأة على العلوم والمعارف ، وثقافتها الممتازة أجمل من صفات الكمال ، وأرفع قدراً عند الرجل من الجمال .

ثانياً : إن آداب الفتاة ومعارفها تؤثر كثيراً فى أخلاق أولادها ، فابنتها الصغيرة إذا رأت أمها مقبلة على مطالعة الكتب ، وضبط أمور البيت ، والاشتغال بتربية أولادها أحبت أن تقلدها فى ذلك على عكس ما إذا رأتها مقبلة على زينتها وتبرجها ، وإضاعة وقتها فى هذا الكلام ، والزيارات التى لا فائدة منها ، فان البنت تشب مضياعة لوقتها ، منصرفة عن النهوض ببيتها .

ثالثاً : إن العلم يهيىء للمرأة سبيل العمل . فتتعاطى من الأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، إذا دفعتها الحال إلى ذلك . وهذا من شأنه أن يشغلها عن البطالة . فان فراغ يدها من العمل ، يشغل لسانها بالأباطيل وقلبها بالأهواء . فالعمل يصون المرأة عما لا يليق . ويقربها من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال . فهى مذمة عظيمة فى النساء . فان المرأة التى لا عمل لها تقضى الزمن من خائضة فى حديث جيرانها . وفيما يأكلون ويشربون . ويلبسون ، ويفرشون ، وفيما عندهم وعندها ... هكذا .

رابعاً : إن التجربة قد قضت فى كثير من البلاد ، أن نفع تعليم البنت أكثر من ضرره ؛ بل إنه لا ضرر فيه مطلقاً .

---

(١) أحمد بدوى (المرجع السابق) ، ٣٢٠ — ٣٢٢

خامساً : إنه قد روى فى كتب الأحاديث روايات كثيرة عن النساء ، وقد كان فى زمن رسول الله من يعلم القراءة والكتابة من النساء للنساء ، وكان من أزواجه — صلى الله عليه وسلم — من يقرأ ويكتب ، كحفصة بنت عمر ، وعائشة بنت أبى بكر — رضى الله عنهما — وغيرهما من نساء كل زمن من الأزمان .

ويذكر ان لجنة تنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ اقترحت العمل لتعليم البنات فى مصر ، وكان رفاعة أحد أعضاء هذه اللجنة ، ولكن الاقتراح لم ينفذ ، فان المجتمع وظروفه وعقليته لم تكن تسمح وقتئذ بتعليم البنات كما اقترحته اللجنة ، واكتفى بانشاء مدرسة للقابلات والمولدات (١) . ولم يسكت رفاعة عن رأيه فدافع عنه كاتباً ومتكلماً ومسئولا ، مطالباً بأن تتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب وما يليق بالبنات أن تعلمه من الصنائع كالخياطة والتطريز .

وفى سنة ١٨٧٣ أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات فى مصر ، أنشأتها جشم آفت هانم أفندى .

هكذا كان يفكر رفاعة بك رافع الطهطاوى فى التربية ومستقبلها ، فقد آمن بالتربية والتعليم والمعلمين ، حتى أنه كتب فى كتاب المرشد الأمين ... « إن خير الناس من يمشى على الأرض المعلمون » (٢) .

---

(١) جمال الدين الشيال (المرجع الأسبق) ص ٥١

(٢) رفاعة الطهطاوى (المرجع الأسبق) ، ١٤٦

على مبارك(١)

رائد التعليم الشعبى ، فى لغة اليوم ، والمصلح التربوى الذى دفعته التجربة الواقعية والخبرة القاسية إلى الإصلاح . فأصلح فى نظام التعليم مؤمناً بأنه عن طريق التربية لا السياسة يكون التقدم ، بل إن الإصلاح السياسى ما لم يرتكز على الإصلاح التعليمى فلا بقاء له ولا قيمة .

ويختلف على مبارك عن رفاعة الطهطاوى ، فعلى مبارك رجل تخطيط على مستوى السياسات الكبرى ، يتطلع إلى أفق عريض ، فهو يتخطى عتبات الحاضر إلى المستقبل ، أما رفاعة فكان رائعاً فى نظرته إلى المسائل الجزئية ، فنبغ فى إدارة المدارس الواحدة تلو الأخرى ، كما تألق فى التأليف والترجمة .

ولعل فى حياة على مبارك الكثير من المفاجآت الممتعة للقارىء والتى صهرته صهراً وكونت له طابعاً مميزاً ، فهذا الطفل الذى ولد فى برنبال إحدى قرى الدقهلية (عام ١٨٢٣) صمم أن يصل إلى مراتب الحكام . وكان أبوه الشيخ مبارك مزواجاً ، أنجب من واحدة فقط سبع بنات وولداً واحداً هو على ، وعاش الطفل طفولة بائسة فقيرة ، وجلس إلى أبى عسر فقيه الكتاب كارهاً التعليم . وعندما حلت الضائقة المالية على أسرته هاجر الشيخ مبارك إلى عرب السماعنة الذين أكرموه وحل بينهم ليسد مطالبهم الدينية . وجلس على إلى أبى الخضر فى كتاب قرية قريبة ولم تجد رشاويه لسيدنا قاسى القلب . وكره الكتاب كرهاً شديداً . وتركه ليكون صبياً لكاتب يعمل عند موظف كبير . ولم يتعلم منه على مبارك شيئاً يذكر بل تحمل إهاناته وضربه .

---

(١) المادة مستمدة من :

أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث .

سعيد زايد : على مبارك وأعماله .

أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر .

على مبارك : الخطط التوفيقية .

محمد أحمد خلف الله : على مبارك وآثاره .

محمد عبد الكريم : على مبارك (حياته وآثاره) .

محمود الشرقاوى وعبد الله المشد : على مبارك - حياته ودعوته وآثاره .

ثم هرب على من ضغط أبيه وأمه ، واتهم ظلماً وسجن ، ثم ساعده السجان بعد خروجه ليكون كاتباً صغيراً عند مأمور زراعة القطن بأبى كبير ، هو « عنبر أفندى » وكان حبشياً أسود البشرة . وكان المعروف أن وظائف الحكام قاصرة على الترك البيض ، وعجب على مبارك وظل يسأل حتى عرف أن « عنبر » كان مملوكاً لسيدة ثرية وألحقته بمدرسة قصر العينى التى يتخرج فيها الحكام . وكان على يريد أن يكون من الحكام ، فأصبح شغله الشاغل الوصول إلى مدرسة قصر العينى وانتظم فى الكتاب حتى ختم المفتش ، ومر ، وسافر إلى القاهرة ، ولكنه وجد مدرسة قصر العينى مخيبة رجاءه . ثم إلى مدرسة الهندسة بأبى رعبل ، ومنها دخل مدرسة المهندسخانة ببولاق ، وخرج منها فى بعثة إلى فرنسا . واستمرت إقامته فى فرنسا خمس سنين . وكان أثناءها يرسل إلى أبويه نصف ما رتب له ، وكان مائة وخمسة وعشرين قرشاً .

وقد خرج على مبارك من سنى دراسته بمجموعة مفاهيم أثرت على اتجاهاته التربوية سواء فى نظارته للمعارف . أو كتاباته المختلفة ومشروعاته الكثيرة . فقد ضايقه سيدنا (أبو عسر) بقسوته وشكليته ، كما كره معاملة أبى خضر ، وخاب أمله فيما تقدمه مدرسة قصر العينى من مواد دراسية أو وسائل للمعيشة . ومن هذه الخبرة آمن بأن التعليم يجب أن يكون من متطلبات البيئة ومسايراً لحاجاتها ، فقد كتب واصفاً الكتاتيب ، « وكانت المكاتب الأهلية فى المدن والأرياف جارية على العادة القديمة ليس فيها على قلة أهلها إلا تعليم القرآن الشريف ، وأقل من القليل من يتممه منهم . ويجيد حفظه ، ويجوده ، ويحسن قراءته . ومع رداءة الخط فى عامة المكاتب » .

كما آمن بضرورة تحرير التعليم من النظم العسكرية والعقوبات العنيفة . فقد رأى وخبر معاملة سيئة ، فكان الطعام المكون من العدس ، والفول يقدم على طبلية فى (قراونتين) . ونام على مبارك على حصير من الحلفاء واستخدم أغطية صوفية وليس جلباباً وزعبوطاً . ثم فى تجهيزى ارتدى بدلة مكونة من عنترى أو صديرى وسروال وحزام . وكان قص الشعر إجبارياً أسبوعياً ،

والاستحمام فى الحمامات العامة مرة كل أسبوعين ، وقد فكر مراراً فى الهرب ولكنه خشى أن يسجن أبوه أو يأخذ أحد أخوته رهينة حتى يعود . واستنكر على مبارك جلد التلاميذ علانية وتقييدهم بجنزير من الحديد جزاء خطأ ارتكبوه.

ويأخذ على مبارك على الفقهاء فى المدارس والكتاتيب سوء فهمهم لعملية التربية ، فيقول إنهم كانوا يعتقدون فى أن « عصاية الفقى من الجنة » فأكثروا من أذية الصبيان ، كما كان الخوف أساس العلاقة بين المعلمين والمتعلمين ، ودفع الخوف الأطفال إلى محاولة استرضاء الفقيه إما بالرياء والنفاق والفتنة أو بملء فمه .

ثم درس على مبارك فى فرنسا ، ورأى ثقافة مختلفة ، وقد عرفنا شيئاً عن فرنسا فى منتصف القرن التاسع عشر ، فقد مضى على ثورتها أكثر من نصف قرن وانتشرت آراء روسو وبستالوتزى ، وشاهد على مبارك دروساً فى المعاهد التعليمية الفرنسية . ثم عاد إلى مصر فى عهد عباس .

وتقلب فى وظائف عدة . وأمضى سنوات بعيداً عن الوظيفة ، ولكنه استغلها فى التأليف والكتابة . ويذكر أنه بدأ عمله برتبة يوزباشى أول ، وكان يعمل مدرساً بمدرسة طرة الحربية ، ثم ظل يترقى إلى أن نال رتبة الأمير الاى وكان ناظراً لمدرسة المهندسخانة . وفى عهد سعيد أوشى به حساده فأرسله الوالى إلى حرب القرم ، وعاد بعد حوالى سنتين ونصف ، ولكنه لم يجد عملا . وفكر فى العودة إلى مسقط رأسه والعمل فى الأرض واشتغل فى التجارة مزايداً وعمل مهندساً حراً . وجاء عهد اسماعيل ووجد فى على مبارك كفاءة يحقق بها أطماعه ، فعهد إليه بتصميم وفتح شوارع مختلفة ، وبنى جسوراً وحفر ترعاً وأقام مساجد عديدة . ولكن على مبارك كان شغوفاً بالتربية ، ويلوح أن هذا الميدان هو الذى خلد اسمه كرائد من روادها الأوائل فى مصر الحديثة .

آراء على مبارك وإنجازاته فى التربية

وصل على مبارك فى عهد اسماعيل إلى أكبر منصب تربوى ، فكان ناظراً (وزيراً) للمعارف ، وقد أهله المنصب إلى أن يضع آراءه محل التنفيذ . ولعل

« لائحة رجب » (١٢٨٤ هـ — ١٨٦٨ م) التى وضعها تعتبر قفزة هائلة فى ميدان التعليم المصرى ، وبداية للتعليم الشعبى المتحرر من أهواء الولاة والحكام ولو قليلا . وقبل أن أعرض هذه اللائحة أشير إلى اتجاه من على مبارك كان خطيراً وجريئاً فى نفس الوقت ، فهو يريد أن يقيم للتعليم القومى كياناً لا يتأثر بأهواء الحاكم ؛ فقد عز عليه أن يقفل عباس المدارس التى بناها محمد على لخدمة أغراضه الحربية ، ثم يأتى سعيد وينكل بالتعليم ، لقد أراد على مبارك أن تكون المصادر المالية التى تصرف على التعليم القومى والشعبى غير مرتبطة بما يجود به الحاكم ، ولذلك أعد ميزانية تعتمد على الحكومة وعلى أموال من الأوقاف الخيرية .

ولائحة رجب فى أقسام ثلاث :

القسم الأول : ويأخذ من المادة الأولى إلى السادسة والعشرين من اللائحة وهو خاص بمكاتب المدن . وكان بالقاهرة وحدها ٢٢٢ مكتباً يتراوح عدد التلاميذ فى كل منها بين خمسة تلاميذ ومائة . وكانت المكاتب فوضى فى مبانيها وإدارتها وحتى ما يدور فيها . وقد ألغى على مبارك غير الصالح من هذه المكاتب مع تحويل تلاميذها إلى مكاتب مناسبة . ثم اهتم بتزويد المكاتب الكبيرة بالمدرسين الذين يدرسون الخط والحساب والصرف والجغرافية والتاريخ ولغة أجنبية . أما فى المكاتب الصغيرة فيدرس بها العرفاء والمؤدبون القراءة والكتابة والعد إلى جانب تعليم القرآن الكريم . كما اهتم بالمكاتب الأهلية غير التابعة للأوقاف فسمح بأن يندب لها من ديوان المدارس من تحتاجه من المعلمين .

واهتم على مبارك بالرعاية الصحية بين التلاميذ ، فرتب لكل جهة طبيباً خاصاً ، كما أولى عنايته بالمتفوقين فكانوا يحضرون حفلات الحكومة فى الأعياد وأصبح من حق التلميذ أن ينتقل من مكتب صغير إلى مكتب كبير دون امتحان أما إذا أراد دخول المدارس الحكومية (الأميرية) فعليه اجتياز امتحان معين .

القسم الثانى : ويأخذ من المادة السابعة والعشرين إلى الثانية والثلاثين من

اللائحة ، وهو خاص بتنظيم مكاتب القرى والنواحى ، وقد كلف على مبارك الأهالى بجملة مصاريف المكاتب التى تنشأ أو توجد فعلا فى قراهم ، كما كان عليهم دفع أثمان الكتب والأدوات المدرسية اللازمة للتلاميذ القادرين على شرائها .

القسم الثالث : ويأخذ من المادة الثالثة والثلاثين إلى المادة الأربعين ، وهو خاص بالمدارس المركزية التى يصير إنشاؤها فى مراكز المديريات ، وقد كلف الأهالى ، ما لم توجد مبان حكومية لائقة ، بناء مدارس لأولادهم وتأثيثها ، أما الأدوات المدرسية والكتب ومأكل وملابس التلاميذ فكانت تؤخذ من أموال الأوقاف الخيرية . ويختم على مبارك اللائحة بتنبيه للمؤدبين أو المعلمين .

هذا ، ويبلور الدكتور محمد أحمد خلف الله الأسس التى قام عليها إصلاح على مبارك فى التعليم ، فيقول عن اللائحة إنها :

١ — احتفظت للكتاتيب بحياتها البسيطة التى درجت عليها منذ إنشائها ويتمثل ذلك فى احتفاظها بالقرآن الكريم أساساً للتربية والتعليم ، وبمعلمى الأولاد من الفقهاء والعرفاء ، وبالأثاث البسيط الذى لم تعرف الكتاتيب غيره. كما أقرت اللائحة الكثير من التقاليد والعادات المرعية فأقرت الحرية التى يتمتع بها الأهالى فى إرسال أبنائهم إلى الكتاتيب أو صرفهم عنها .

وحرصت اللائحة حرصاً شديداً على أن تظل هذه الكتاتيب مؤسسات أهلية لا تتدخل الحكومة فى شأنها إلا بمقدار ، وذلك لتظل هذه الكتاتيب محتفظة بثقة الأهلين ، وتصبح فى الوقت نفسه فى يد الحكومة على أنها الأداة الشعبية البسيطة الرخيصة لمكافحة الأمية ، ومقاومة الجهالة ، ونشر قسط من التعليم ... كما وصلت اللائحة بين هذا اللون من التعليم وبين التعليم الأميرى الممثل فى مدارس الحكومة الابتدائية والتجهيزية ، فرسمت بأن التلامذة المنتهين من تلك الكتاتيب يدخلون إذا أرادوا فى المدارس الابتدائية أو المدارس المركزية الأميرية .

٢ — قسم على مبارك مكاتب الأوقاف قسمين على أساسين مختلفين ، الأول من حيث الموارد المالية التى تعتمد عليها هذه المكاتب ، وكان بعضها تحت نظر ديوان الأوقاف وبعضها الآخر له أوقاف نظارتها لغير ديوان الأوقاف ، فأخضعها على مبارك للمعارف من حيث الإشراف الفنى ، وأخضعها لديوان الأوقاف من حيث النظارة والموارد المالية ، أما القسم الثانى فقام على أساس آخر هو عدد التلامذة فى كل مكتب ، فقسمت المكاتب إلى كبيرة وصغيرة ، أو إلى مكاتب من الدرجة الأولى ، ومكاتب من الدرجة الثانية . وقامت الدراسة فى المكاتب الكبيرة على أساس أنها تقريباً كالمدارس الابتدائية ، أما الصغيرة فقد قنعت اللائحة منها بأن جعلتها مرحلة قبل هذه ، واكتفت بما كان يدرس بها من القرآن الكريم والقراءة والكتابة ، ولم تضف إليها إلا شيئاً قليلا من الحساب .

وخضعت مكاتب الأوقاف لإشراف المعارف وأصبحت جزءاً من النظام التعليمى العام .. « فجميع المدارس والمكاتب سواء بالقرى أو بالبنادر تكون تحت أصول تنظيمية وترتيبات حسنة منتجة ، وامتحانات سنوية ، وملاحظات وتفتيشات من طرف الحكومة . وهذا لتحسين حالهم واستقبالهم ومنفعتهم الخصوصية العائدة إليهم مع المنفعة العمومية على الحكومة مع تهذيب رعاياها وإصلاح حالهم . ووجود التعاون بينهم ، ومعاونتهم لأوطانهم » .

ورمى على مبارك إلى الإكثار من عدد المدارس ، ولكن عقبة المال وقفت أمامه ، وقد رأى أن يسلك طريقين . الأول تعديل أساس الحياة المدرسية فى المدارس التى تنشئها الدولة وتنفق عليها من الميزانية العامة أو من إيراداتها ، والثانى تكليف الأهالى إنشاء مدارس على نمط المدارس الأميرية أو المركزية .. والأساس الذى قامت عليه الحياة المدرسية فى النظام الجديد أنها تحولت من حياة عسكرية يجمع فيها الصبية ، وتصرف عليهم الدولة ، إلى حياة مدرسية يتردد فيها الطالب على المدرسة نهاراً ويبيت فى منزله ليلا ، ويدفع ولى أمره بعض تكاليف تعليمه . بهذا أصبح نشاطاً تشترك فيه الحكومة والأمة .

ولعلى مبارك الفضل فى إنشاء مكتبين لتعليم البنات أحدهما فى القربية والآخر بالسيوفية ، مؤكداً بذلك هدفه من التعليم عامة وجعله مطلباً وطنياً قومياً لا وسيلة فى يد الوالى لتنفيذ مآربه .

وكان من رأى على مبارك توسيع القاعدة فى التعليم فى مرحلته الأولى وتيسير التعليم فيها مع تحسين مادة التعليم وطرائق التدريس . ولهذا فقد اتجه إلى ثورة فى إعداد المعلمين ، ثم اتجه إلى نشر الثقافة لمختلف الأعمار . وسوف أتناول الاتجاهين :

إعداد المعلمين :

جاء فى البند السادس عشر من لائحة رجب : « تعيين المعلمين والمؤدبين يكون بمعرفة ديوان المدارس وتعطى لهم شهادة من الديوان المذكور ، وهذا يكون باتحاد الديوان المذكور مع من يلزم من العلماء وعمد الجهة . » وجاء فى البند السابع عشر : « شرط المؤدب أن يكون حسن الأخلاق والصفات وفيه أهلية لتعليم القرآن الشريف كما ينبغى ، وأن يكون له معرفة بأمور الدين القويم وأن يحسن باب العدية من الحساب » .

وجاء فى رسالة أرسلها إلى زوجته يصف فيها المؤدب الذى يجب أن نتخيره لتعليم أولاد الأسرة من البنين والبنات (وردت الرسالة فى كتابه « علم الدين ») . « وإذا اخترت مؤدباً فالأولى أن يكون موصوفاً بأوصاف الكمال . ذا معرفة ووقار ، وسكينة وجلال . وأن يكون فى فن الحساب كاشفاً عن مخدراته النقاب وفى فن اللغة والأدب كأنما حفظ لسان العرب ، وفى العقيدة أشعرياً ، وفى الأخلاق أحنفياً ، وفى علم السير مجداً ، وفى الحديث نهراً . ولا يلزم أن يقيم معهم طول نهاره ، بل يكفى أن يأتى لهم فى وقت معين ، والأولى أن يكون بعد وقت إفطاره ثم يخرج بعد أن يقسم لهم الوقت نصفين : نصف يشتغلون فيه بالمطالعة والمذاكرة والنصف الآخر يلعبون فيه ، والأولى أن تكون حصة اللعب متخللة بين أوقات التعليم والمذاكرة لئلا يطول عليهم الجلوس ، فتخمد فكرتهم ، وتضعف بنيتهم وأرجوك منع

الضرب مطلقاً ؛ وأن تسلكى بهم طرق النصيحة . والأسباب الموجبة لزيادة الاجتهاد وصفاء القريحة كأن تهدى إلى المجتهدين منهم بعض تحف ، من ملبس أو مأكل أو كتب أو مصحف ، ونحو ذلك مما تميل إليه الأطفال على حسب ما يظهر لك من الأحوال ، فان ذلك باعث لغيرتهم وازدياد رغبتهم أكثر ما يكون بالأذى والضرب ، لأن الضرب يؤثر فى الأعضاء الظاهرة فقط ، وبعد برهة من الزمن يزول كأن لم يكن ، بخلاف ذلك يؤثر فى الباطن .. وأيضاً فأن الضرب يحرك الشهوات الغضبية عند الضارب فلا يقف فى ضربه عند حد العقاب بل يتعداه لما يخطر فى باله من سوابق ذنوب المضروبين ، فربما أضر بأعضائهم أو ترتب على الخوف والرعب بحثهم عما يخلصهم من يده ، فيحتجون بكل ما أمكنهم من الحجج من غير تمييز بين قبيحها ومليحها حتى ينجو من يده ، وربما ألجأته الاحتجاجات والتعللات إلى أسباب الدناءة و خسة الطباع فتبقى فيهم طول عمرهم .

وفى هذه الرسالة يتكلم على مبارك عن الشروط الواجب توافرها فى المعلم أو المؤدب ، من الناحية العلمية ، والأخلاقية ، وعلاقته بالأطفال ، ويلمس فى الجزء الأخير من الرسالة (لم أذكره فيما سبق) عن ضرورة البدء بالكلمات الصغيرة والحكم القصيرة ثم يتدرج منها إلى ما فوقها . ويلمس أيضاً نواحى نفسية خاصة بالمؤدب والطفل .

لذلك كانت عناية على مبارك باعداد المعلمين بعد ما قاساه منهم ، ورغبة فى تحسين أحوال التعليم عامة كركيزة للنهوض بوطنه . ولم تكن هناك معاهد خاصة لتخريج المعلمين ، فكان الأزهر يمد البلاد بمدرسى اللغة العربية والدين والقرآن الكريم ، وتمد مدرسة الألسن المدارس بمدرسى اللغات الأجنبية والمواد الأدبية أما مدرسة المهندسخانة فكانت تقدم مدرسى الرياضة . ولم يكن هؤلاء يعدون ليكونوا معلمين اللهم إلا معرفتهم المادة التى يدرسونها ، وشعر على مبارك بالمشكلة ... « وحيث كان من أهم ما يلزم للمدارس الاستحصال على معلمين مستعدين للقيام بسائر وظائف التعليم أمعنت النظر فى هذا الأمر

المهم » وإذ ذاك فكر فى إنشاء مدرسة يؤخذ لها من خيرة طلبة الأزهر بامتحان ويختار لها خيرة العلماء من الأزهر وغيره ، ويعلم طلبتها العلوم الدينية وشيئاً من علوم الدنيا كالرياضة والجغرافية والتاريخ والطبيعة والكيمياء ، فكان من ذلك كله مدرسة دار العلوم .

« دار العلوم » كانت اسماً لقاعة المحاضرات الملحقة بالكتبخانة ، وحولها على مبارك إلى مدرسة لتخريج المعلمين . وكان يصرف للطلبة فيها مرتب شهرى يعينهم فى كسائهم ونفقاتهم » كما كانوا يتناولون فيها طعام الغذاء . وتخير لهم على مبارك جماعة من أفاضل علماء الأزهر ، فانه كان كثير الشكوى من ضعف التلاميذ فى اللغة والنحو . ويذكر على مبارك سبب إنشائه هذه المدرسة لتخريج معلمى اللغة العربية فى التماس رفعه إلى الخديو فى ٣٠ يوليه عام ١٨٧٢ « بما أن مرغوب الجانب الخديو نشر أنوار التمدن والتقدم بتوسيع دائرة التربية والتعليم ولذلك حصل بعنايته السنية وفى ظل حضرته العلية بتجديد ما تجدد من المكاتب الأهلية ولم يزل حاصلا مزيد الاهتمام بحسن تنظيمها وازديادها وتعميمها فى سائر جهات الوطن العزيز وذلك يحتاج بالضرورة لوجود كثيرين من مهرة المعلمين يقومون بواجبات حسن التربية والتعليم على الوجه الأتم كمرغوب جناب ولى النعم .

وقد تلاحظ أن المشتغلين الآن بوظيفة التعليم فى اللغة العربية والتركية ليس فيهم الكفاية بالنسبة لذلك ، فان وافق الحضرة العلية ينتخب قدر ٥٠ من نجباء الطلبة من سن ٢٠ سنة إلى ٣٠ سنة يؤخذون بالامتحان لمن يرغبون ذلك ويوجد فيهم الأهلية واللياقة ويدرس لهم فى درا العلوم الملحقة بالكتبخانة العامرة مايلزم لتعميم معلوماتهم واستعدادهم لأداء وظيفة التعليم وحسن التربية على الوجة المطلوب والأسلوب المرغوب . ويحصرون جميع الدروس التى تلقى إليهم ويربط كل منهم مدة إقامته تحت التعليم ١٠٠ قرش شهرى ضمن المتحصل للكتبخانة من الرسوم بديوان الأوقاف . وعند تعيين أحد منهم فى وظيفة فى مكتب من المكاتب بعد تمام تعليمه وظهور براعته بالامتحان يربط له بدل

١٠٠ قرش المذكورة على الجهة التى يعين لها الماهية اللازمة على حسب الوظيفة التى ينتخب إليها فانه بهذه الواسطة يمكن الاستحصال على ما فيه الكفاية من المعلمين للغة العربية والتركية ويؤخذ منهم لجهات الاقتضاء على حسب اللزوم، وبذلك يتقدم ويستقيم أمر المعلم والمتعلمين .

فبناء عليه لزم ترقيمه لعرض ذلك على الأعتاب السنية وترد الإفادة عما يصدر الأمر الكريم بمقتضاه » .

وقد ووفق على التماس على مبارك ، وعمل به ابتداء من أغسطس عام ١٨٧٢ .

الثقافة العامة :

كانت لائحة رجب لتنظيم التعليم فى المدارس العامة والخاصة ، ثم أعداد المعلمين اللازمين لهذه المدارس . وكانت الخطوة الثالثة المباركة نحو تيسير الثقافة لأبناء الوطن خارج المدارس . وفى هذا السبيل ألف على مبارك مجموعة كتب ، كما شجع غيره على الترجمة والتأليف . كما أنشأ داراً للكتب .

أما مؤلفاته فقد عرف عنه أنه كان رجلا موسوعياً متنوع الثقافة . فقد كتب فى الهندسة العسكرية ، والأدب ، والتاريخ ، والطب ، والجغرافية ، والحديث الشريف ، والموازين والأقيسة ، والهجاء ، والتمرين على القراءة ، والحساب . وكتبه تنقسم إلى نوعين ، ثقافة مدرسية خالصة ، والنوع الثانى ثقافة عامة .

أما الكتب المدرسية فقد ألف بعضها بمفرده ، كما اشترك معه آخرون فى تأليف البعض الآخر . ومن هذه الكتب المدرسية : تذكرة المهندسين ، تقريب الهندسة ، تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام ، خواص الأعداد ، طريق الهجاء والتمرين ، الميزان فى الأقيسة والمكاييل والأوزان ، حقائق الأخبار فى أوصاف البحار ...

أما كتب الثقافة العامة ، فأهمها كتاب « الخطط التوفيقية » وفيه يصف

القاهرة وحاراتها وشوارعها ومساجدها ومدارسها ، كما يصف مدن مصر وقراها مرتبة على حروف الهجاء . ويذكر أن كتاب « الخطط التوفيقية » أكمل به على مبارك خطط المقريزى ، والكتاب فى عشرين جزءاً أو خمسة مجلدات (حوالى ألفى صفحة) ، ويقال إنه كان يستعين بمرؤوسيه من الموظفين فى الوزارات التى تولاها كالمعارف والأوقاف والأشغال ، فى جمع كثير من المعلومات التى ضمنها كتابه هذا .

ولعلى مبارك كتاب آخر اسمه « علم الدين » وهو قصة شيخ تربى فى الجامع الأزهر ، وتتلمذ عليه مستشرق إنجليزى ثم دعاه لزيارة انجلترا . وفى الطريق من القاهرة إلى الاسكندرية كان الشيخ علم الدين يجيب على أسئلة المستشرق . وبعد الاسكندرية صار الشيخ هو الذى يسأل والمستشرق يجيب ، وكان غرض على مبارك من الكتاب إعطاء الشرقيين معلومات عن الغرب وحضارته وقيمه ومن كتبه أيضاً « نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر » وهو كتاب فى الجغرافية يشتمل على مقدمة وأربعة أبواب . تكلم فيه الكاتب عن تاريخ الديار المصرية ، وفيما يتعلق بالنيل من مسائل ، وفى تكوين وادى النيل ، وفى أهالى القطر المصرى .

كما أشرف على مبارك على ترجمة كتاب « خلاصة تاريخ العرب » لمؤلفه العالم سيديو Sedeillot . وظهرت له عدة مقالات فى « روضة المدارس المصرية » .

ومظهر آخر من مظاهر إنمائه الثقافه العامة ، إنشاء دار الكتب ، ويقول : « ولما لم يكن بمصر دار كتب جامعة عامة يرجع إليها المعلمون للاستعانة على التعليم كما فى مدارس البلاد الأجنبية ، أنشىء محل بجوار المدارس من داخل سراى درب الجماميز المذكورة لهذا الغرض ، وصرف عليه من مربوط المدارس ، فجاء محلا متسعاً يزيد عن لوازم المدارس من الكتب وأدوات التعليم ... وصدر أمر بأن تجمع فيه الكتب المتفرقة (أى الموجودة فى الجهات المبرية وجهات الأوقاف) فجمعت من كل جهة وجعل لها ناظر وخدمة ، ورتب لها مغير من علماء الأزهر لمباشرة الكتب العربية وآخر لمباشرة الكتب

التركية . ونظمت لها لائحة صار نشرها يؤذن لها باباحة الانتفاع بها للطالبين وسهولة التناول للراغبين مع الصيانة لها وعدم التفريط فيها فجاءت بحمد الله من أنفع الإنشاءات ... وجعل بها محل على الكتب والمطالعة والمراجعة فيها والنسخ والنقل منها ، ورتب فيه ما يلزم للكتابة من الأدوات بحيث يتيسر بها الموضوع لكل من شاء غرضه من ذلك متى شاء ... »

ويتضح من مجهودات على مبارك ، وقد تعرضت لبعض منها ، أن اتجاهه كان نحو المصالح الجماهيرية بايمان واضح وبرغبة صادقة فى تحسين التعليم وخاصة فى المرحلة الأولى منه ، مرحلة الكتاتيب والمدارس الابتدائية ، ثم يتطلع إلى تثقيف عام للجماهير . أما ما بينهما فيلوح أن القوة الحاكمة كانت ذات سلطات لا يستطيع إزاءها على مبارك كثيراً . ويلوح أن الخديو إسماعيل أرضى نفسه من حيث تباهيه بأن عصر دار أكبرة للكتب . وفيها أيضاً ومدارس فى القرى .

عبد الرحمن الكواكبي

.. بدأت مصر تطل على العالم بعدقرون من النوم العميق المخدر ، ولكن العالم المتحضر كان قد سبق فجاء إلى مصر مع الحملة الفرنسية : وبدأت العواصم العربية فى سوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية تنظر بعين متلهفة وخائفة فى نفس الوقت لهذه الهزة الحقيقية التى تحرك مدينة الألف مئذنة — القاهرة المحروسة . وتلفت المسلمون وأمعنوا النظر فى موقفهم ، فهاهى الدولة المسلمة الكبرى (الدولة العثمانية) تحيطهم بكل أنواع الاستبداد والاضطهاد . كما بدأت الدول العظمى (إنجلترا فرنسا) تلمح كنوزاً وإمكانات فى الشرق العربى الإسلامى .

وكانت الدولة العثمانية رجلا مريضاً هرماً ، لا يقوى على الثورات المتلاحقة فى بلاد البلقان واليونان . بل إن رجلين من داخل البلاد العربية وجدا الفرصة سانحة لزيادة علل الرجل المريض ، محمد عبد الوهاب فى شبه الجزيرة العربية يثور لإصلاح دينى ، ومحمد على يتألب على الباب العالى يريد لنفسه حكماً مستقلا ولأبنائه من بعده فى مصر .

وعز على بعض المتحمسين أن يروا الشرق العربى منتكساً ذليلا ، عز عليهم أن يروا الدين يستغل فى انحراف ضد مصالح الجماهير الشعبية التى كساها الجهل بطبقات من الصدأ والسلبية والكسل . عزت عليهم هذه الاتجاهات الاتكالية التى جعلت دول المشرق الإسلامى تركع تحت أقدام العثمانيين الأتراك ..

وتلألأت فى السماء أربعة نجوم زاهرة ، وأرعدت السماء بالعرب أن يسمعوا الصيحات فتيقظوا ، وأبرقت السماء حتى تضىء لهم الطريق إلى الحرية والعزة والكرامة ... وإلى المجد الذى خبا . صاح جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ — ١٨٩٧) هداماً إلى إصلاح العقول والنفوس ، ثم إصلاح الحكومة

ورابطاً ذلك بالدين . وكان يرى إصلاح الحكومة عن طريق الشعب . عمل جاهداً بقلمه وحماسه على إنهاض الدول الإسلامية المتخلفة لتلحق بالأمم الغربية التى سبقتها .

ومن النجوم الزاهرة عبد الله النديم (١٨٤٥ — ١٨٩٦) الذى فتح للناس فى جريدتيه « التنكيت والتبكيت » و « الأستاذ » أبواباً من الإصلاح الاجتماعى كانت مغلقة ، فى التعليم والزراعة ، واللغة والصناعة ، والأخلاق الخ

ولد السيد عبد الرحمن الكواكبى فى حلب عام ١٨٤٨ ، ونشأ نشأة دينية ، فتعلم اللغة العربية والدين فى مدرسة أسرته بحلب بالمدرسة الكواكبية . ثم تعلم الفارسية والتركية . وقد تقلب الكواكبى فى عدة وظائف ، وأنشأ جريدة فى حلب اسمها « الشهباء » ، وعمل بالتجارة وبالمشروعات العمرانية ، واحتك بأصناف كثيرة من الخلق ومن ألوان الاستبداد التركى . ويذكر أنه ناوأ « عارف باشا » والى حلب من قبل السلطان عبد الحميد فزور الوالى عليه أوراقاً . وحوكم الكواكبى فى بيروت بناء على طلبه . وانتهت المحاكمة بتبرئته ومعاقبة الوالى .

وقد أمضى الكواكبى الشطر الأكبر من حياته فى دراسة أحوال المسلمين فقرأ عنهم ، وزار بلادهم مستطلعاً ودارساً . وخرج من هذه الدراسة بكتابين خلدا ذكره هما « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » ويقول الأستاذ أحمد أمين فى تعليقه على موضوعات كتابى الكواكبى ... « كان الحديث فى مثل هذه الموضوعات التى مسها الكواكبى فى كتابين من الموضوعات المحرمة ، لأنها تمس نظام الحكم من قريب ، وتفهم الشعوب حقوقهم وواجباتهم ، وتقفهم على مناحى الظلم والعدل ، وتهيئهم للمطالبة بالحقوق إذا سلبت ، والقيام بالواجبات إذا أهملت . وهذا أبغض شىء لدى الحاكم المستبد ، لذلك رأينا الشرق من بعد ابن خلدون أغلق هذا الباب ، ولم يفتحه أى باحث بعده . وصار كتاب ابن خلدون مقدمة بلا نتيجة . والعلوم التى حوفظ عليها واستمرت دراستها ، هى علم النحو والصرف واللغة والفقه ، لأنها لا تمس الحاكم من

قريب ولا بعيد ، ولا تفهم الناس أين هم من حاكمهم وأين حاكمهم منهم . والأدب مداح للملوك والحكام ، يجعل ظلمهم عدلا وفسادهم صلاحاً ... والمؤرخون لا يؤرخون إلا شخص الحاكم فى حياته وأعماله وحروبه وزوجاته وأولاده ، أما الشعب فلا شيء إلا أن يكون مزرعة للحكام . وأحب علم إلى الحكام المستبدين وأدعاهم لنصرته هو ما لا يتصل بالحكم ونظامه ، ورجال الدين المقربون هم الذين يدعون إلى التسليم بالقضاء والقدر ، ويستطيعون أن يولدوا المعانى من مثل « السلطان ظل الله فى أرضه » . أما علم الاجتماع وعلم السياسة والاقتصاد فلم يعرفه الشرق بعد ابن خلدون بتاتاً ... » .

ويتخذ الكواكبى الدين أساساً للإصلاح لأنه كان يرى :

١ ــ أن الدين أصلح الأشياء لأن يقوم عليه الإصلاح ، وإن يكن هو ذاته فى حاجة دائمة لمن يتعهده بالإصلاح . ويقول فى هذا الصدد .... « وما أحوج الشرقيين أجمعين من بوذيين ومسلمين و مسيحيين وإسرائيليين وغيرهم إلى حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء الغفل الأغبياء ، والرؤساء القساة الجهلاء ، يجددون النظر فى الدين فيعيدون النواقص المعطلة ، ويهذبونه من الزوائد الباطلة ، مما يطرأ عادة على كل دين يتقادم عهده فيحتاج إلى مجددين يرجعون به إلى أصله . » .

٢ ــ أن الإصلاح الدينى يؤدى حتماً إلى إصلاحات عديدة فى مختلف نواحى النشاط ، فعندما أنكر البروتستانت معصومية البابا خطوا إلى اليقظة العقلية ، وتحرر العقل المسيحى من سلطان البابا ، ثم أزالوا الحواجز بين الإنسان وربه . وبدأ المسيحى يناقش النصوص الدينية ... ثم يناقش الأوامر التى تصدرها السلطة الزمنية ، وحاول تحديد العلاقة بين الحاكم والمحكومين .

ورأى الكواكبى أن إصلاح الدين يتم بالنظر فى(١) :

١ ــ الزيادات التى دخلت على الدين وليست منه ، والتشديدات التى جاء بها الفقهاء فأضرت بالدين نفسه وجعلته لا تحتمل ولا يطاق ، والخلافات التى

(١) محمد أحمد خلف الله : الكواكبى - حياته وآراؤه . ص : ٢٥ .

وقع فيها الأقدمون وكيف جلبت عليهم الحيرة وشوشت على المسلمين أمور دينهم ودنياهم .

٢ – مصادر الدين التى يصح أن نقف عندها ، ولا نعدوها إلى غيرها ، والأسس التى يصح أن يقوم عليها فهم الدين واستنباط أحكامه . والحرية التى يجب أن يتمتع بها العقل البشرى فى أمور هذه الدنيا .

وفى الصفحات القادمة نظرة طائر سريعة لأهم ما أورده عبد الرحمن الكواكبى فى كتابيه « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » .

أولا : كتاب « طبائع الاستبداد »

ويدور حول تعريف الاستبداد بأنه « صفة للحكومة المطلقة العنان . التى تتصرف فى شئون الرعية كما تشاء ، بلا خشية حساب ولا عقاب » . ويتكلم عن علاقة الاستبداد بالدين والعلم والمجد والمال والأخلاق والتربية والترقى .

الاستبداد والدين : يقول الكواكبى ... « يرى المحررون السياسيون من الفرنج أن التعاليم الدينية ومنها الكتب السماوية تدعو البشر إلى خشية قوة عظيمة هائلة لا تدرك كنهها العقول تهدد الإنسان بكل مصيبة فى الحياة وعذاب مديد أو خالد بعد الممات تهديداً ترتعد منه الفرائص فتخور القوى وتنذهل منه العقول فتستسلم للخبل والأوهام . ثم تفتح هذه التعاليم أبواباً للنجاة من تلك المخاوف عليها حجاب من البشر هم الأحبار والقسس والمشايخ . ودخولها التنظيم الراسب بالقلب والقالب ، أى تقديم جزية احترام مع ذلة اعتراف أو ثمن غفران أو كفالة الرزق من بيت المال لأولئك الحجاب الذين بعضهم يحجزون حتى الأرواح من لقاء ربها ما لم يأخذوا عنها رسوم المرور إلى القبور وفدية الخلاص من الاعتراف .

ويقولون إن المستبدين من السياسيين يبنون استبدادهم على أساس من هذا القبيل أيضاً لأنهم يسترهبون الناس بالتعالى الشخصى والتشامخ الحسى ويذلونهم بالقهر والقوة وسلب الأموال حتى يجعلوهم خاضعين لهم عاملين لأجلهم كأنهم خلقوا من جملة الأنعام نصيبهم من الحياة ما يقتضيه حفظ النوع فقط .

والحاصل أن كل المدققين السياسيين يرو السياسة والدين يمشيان متكاتفين ويعتبرون أن إصلاح الدين أسهل منالا وأقوى وأقرب طريقاً للإصلاح السياسى ... لا مجال لرمى الإسلامية بالاستبداد بعد أمثال هذه الآيات البينات المفسرات للمواد من قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » أى شأنهم . وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وهم العلماء والرؤساء على ما اتفق عليه أكثر المفسرين ... إن الإسلامية مؤسسة على أصول الإدارة الديموقراطية أى العمومية والشورى والأريستوقراطية أى شورى الأشراف ... لكن إهمال المراقبة والسيطرة والمؤاخذة والسؤال أوسع لأمراء الإسلام مجال الاستبداد وتجاوز الحدود ... وقد جمع البعض جملة مما اقتبسه وأخذه المسلمون عن غيرهم وليس هو من دينهم فقال : اقتبسوا مقام البابوية وتمثيله ، باحترام الأعاظم احترام عبادة . وطاعة الكبراء على العمياء وضاهوا مقامات البطارقة والكردينالية والشهداء وأستقفية كل بلد . وحاكوا مظاهر القديسين وعجائبهم والدعاة المبشرين وصبرهم ... وقلدوا رجال الكهنوت فى مراتبهم وتميزهم فى ألبستهم وشعورهم . وشاكلوا مراسم الكنائس وزينتها والبيع واحتفالاتها والترنحات ووزنها والترنمات وأصولها وإقامة الكنائس على القبور وشد الرحال لزيارتها .. والخلاصة أن البدع التى شوشت الإيمان وشوهت الأديان تكاد كلها تتسلسل بعضها من بعض وترمى جميعها إلى عرض واحد هو المراد ألا وهو الاستبداد ...(١) » .

الاستبداد والعلم : يقول الكواكبى ... « المستبد لا يخشى علوم اللغة المقومة للسان إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الألوية أو سحر بيان يفل الجيوش .. وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة وإنما يلهى بها المنهوسون للعلم ، فاذا نبغ فيها البعض ونالوا شهرة بين العوام لا يعدم وسيلة لاستخدامهم فى تأييد أمره بنحو سد أفواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد .. فلم ترتعد

---

(١) عبد الرحمن الكواكبى : طبائع الاستبداد ص : ١٥ — ٢٥ .

فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم وسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الأدبية وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم .

ويقال بالإجمال إن المستبد لا يخاف من العلوم كلها بل من التى توسع العقول وتعرف الإنسان ما هو الإنسان وما هى حقوقه وهل هو مغبون وكيف الطلب وكيف النوال وكيف الحفظ . المستبد عاشق للخيانة والعلماء عواذله . المستبد سارق ومخادع والعلماء منبهون محذرون وللمستبد أعمال وصوالح لا يفسدها عليه إلا العلماء ... »

المستبد كما يبغض العلم لنتائجه يبغضه لذاته لأن للعلم سلطاناً أقوى من كل سلطان ، فلابد للمستبد من أن يستحقر نفسه كلما وقعت عينه على من هو أرقى منه علماً ... لذلك لا يحب المستبد أن يرى وجه عالم أذكى فاذا اضطر لمثل الطبيب يختار المتصاغر المتملق . وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله « فاز المتملقون » بل هذه طبيعة فى كل المتكبرين وعليها مبنى ثنائهم على كل من يكون مسكيناً خاملا لا يرجى لخير ولا لشر ...

ينتج مما تقدم أن بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطرداً مستمراً يسعى العلماء فى نشر العلم ويجتهد المستبد فى إطفاء نوره والطرفان يتجاذبان العوام . ومن هم العوام ؟ هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا وإذا خافوا استسلموا .. العوام هم قوت المستبد وقوته بهم،عليهم يصول وبهم على غيرهم يطول . يأسرهم فيتهللون لشوكته ، ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء الحياة ، وبينهم فيثنون على رفعته ويغرى بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته ، وإذا أسرف بأموالهم يقولون عنه إنه كريم ، وإذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيماً ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب . وإن نقم عليهم منهم بعض الأباة قاتلوهم كأنهم بُغاة ...(١) .

---

(١) المرجع السابق ص : ٣٦ - ٣٠ .

الاستبداد والمجد : ثم يتكلم الكواكبي عن الاستبداد والمجد ويقول بأن .. « العقل والتاريخ والعيان يشهد بأن الوزير الأعظم المستبد هو اللئيم الأعظم فى الأمة ثم من دونه من الوزراء يكونون دونه لؤماً ، وهكذا تكون مراتب لؤمهم حسب مراتبهم فى التشريفات ... المستبد حريص على ظلم الناس وهو محتاج لعصابة تعينه . فهل يجوز العقل أن ينتخب لعصابته من يشك فيه أنه لا يوافقه على مراده ، كلا ... هل ينتخب وزيراً له من السوقة لم تسبق له التجربة ولا معرفة ما انطوى عليه ، كلا ... إن وزير المستبد هو وزير المستبد لا وزير الأمة كما فى الحكومات الدستورية ... إن كل رجال عهد الاستبداد لا أخلاق لهم ولا حمية ولا يرجى منهم خير مطلقاً ...

إن المستبد فرد عاجز لا قوة فيه ولا حول له إلا بالمتمجدين . والأمة المأسورة ليس لها من يحك جلدها غير ظفرها ، ولا يقودها إلا العقلاء بالتنوير والإهداء حتى إذا اكفهرت سماء عقول بنيها قيض الله لها منها قادة أبراراً يشترون لها السعادة بشقائهم والحياة بموتهم حيث جعل الله فى ذلك لذتهم ولمثله خلقهم . كما خلق آخرين فساقاً فجاراً مهالكهم الشهوات والمثالب فسبحان الذى يختار من يشاء لما يشاء وهو الخلاق العظيم (١) » .

ثم يتكلم الكواكبي عن « الاستبداد والمال » . ويرى الكواكبي الخير فى نوع معقول من الاشتراكية فلا ينبغى أن يتساوى العالم الذى أنفق زهرة حياته فى تحصيل العلم النافع ، أو الصانع الماهر فى صنعة مفيدة ، وذلك الجاهل الخامل النائم فى ظل الحائط ، ولكن العدالة تقتضى أن يأخذ الراقى بيد السافل والغنى بيد الفقير فيقربه من منزلته ، ويقاربه من معيشته . والحكومة الاستبدادية سبب فى اختلال نظام الثروة ، فهى تجعل رجال السياسة والدين ومن يلحق بهم يتمتعون بحظ عظيم من مال الدولة ، مع أن عددهم لا يتجاوز

---

(١) المرجع السابق . ص : ٣٠ — ٤٢ .

الواحد فى المائة ... كما أن الحكومات المستبدة تيسر للسفلة طريق الغنى بالسرقة والتعدى على الحقوق العامة .

تعرض لأثر الاستبداد فى الأخلاق فيرى أنه يضعفها أو يفسدها . فلا يحب الفرد وطنه لأنه يشقى فيه ، ولا ينعم بلذة العزة والشمم والرجولة. ويجعل الاستبداد من الفضائل رذائل ، ويفسد عقول المؤرخين ، ويفقد الثبات فى الخلق ، ويرغم الأخيار من الناس على ألفة الرياء والنفاق .

الاستبداد والتربية : يقول الكواكبي : « خلق الله فى الإنسان استعداداً للفساد فأبواه يصلحانه وأبواه يفسدانه ، أى أن التربية تربو باستعداده جسماً ونفساً وعقلا ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر » الاستبداد المشئوم يؤثر على الأجسام فيورثها الأسقام ، ويسطو على النفوس فيفسد الأخلاق ، ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعالم . بناء عليه ، تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين فى النتائج ، فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته .

الإنسان فى نشأته كالغصن الرطب ، فهو مستقيم لدن بطبعه . ولكنها أهواء التربية تميل به إلى يمين الخير أو شمال الشر ، فاذا شب يبس وبقى على أمياله ما دام حياً ، بل تبقى روحه إلى أبد الآبدين فى جحيم الندم على التفريط أو نعيم السرور بابقاء حق وظيفة الحياة ... .

التربية ملكة تحصل بالتعليم والتمرين والقدرة والاقتباس فأهم أصولها وجود المربين وأهم فروعها وجود الدين ، وهذه الملكة بعد حصولها إن كانت شراً تضافرت مع النفس والشيطان فرسخت . وإن كانت خيراً تبقى مقلقلة كالسفينة فى بحر الأهواء لا يرسو بها إلا على فرعها الدينى أو الوازع السياسى مع المثابرة على العمل بمقتضاها ...

التربية الجسم وحده إلى سنتين ، وهى وظيفة الأم وحدها . ثم تضاف إليها تربية النفس إلى السابعة ، وهى وظيفة الأبوين والعائلة معاً . ثم تضاف إليها العقل إلى البلوغ وهى وظيفة المعلمين والمدارس . ثم تأتى تربية القدوة بالأقربين إلى الزواج وهى وظيفة الصدفة. ثم تأتى تربية المقارنة

وهي وظيفة الزوجين إلى الموت أو الفراق . ولابد أن تصحب التربية من بعد البلوغ تربية الظروف المحيطة ، وتربية الهيئة الاجتماعية وتربية القانون أو السير السياسي وتربية الإنسان نفسه ...

الحكومات المنظمة هي التي تتولى ملاحظة تربية الأمة من حين تكون في ظهور الآباء وذلك بأن تسن قوانين النكاح ثم تعتني بوجود القابلات والملقحين والأطباء ثم تفتح بيوت الأيتام واللقطاء ثم المكاتب والمدارس للتعليم من الابتدائي الجبري إلى أعلى المراتب ، ثم تسهل الاجتماعات وتمهد المراسح وتحمي المنتديات وتجمع المكتبات والآثار وتقيم النصب المذكرات وتضع القوانين المحافظة على الآداب والحقوق ...(١) » .

ثم يتضح لنا أن التربية الصحيحة لا تمكن في ظل الاستبداد .

ثم يتكلم الكواكبي في الأجزاء الأخيرة من كتابه عن « الاستبداد والترقي » ويقصد الترقي في الجسم وفي الاجتماع بالعائلة والعشيرة ، ثم الترقي في القوة بالعلم والمال ، ثم الترقي في الملكات بالخصال والمفاخر . ويتكلم عن الترقي الروحي ، وأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يترقى إليها على سلم الرحمة والإحسان ، وأن الاستبداد بالأمة عدو ذلك كله .

ثم يقترح وسائل التخلص من الاستبداد عن طريق اللين وبالتدريج ويبث الشعور بالظلم ، وهذا يكون بالتعليم والتحميس .

ثانياً : كتاب « أم القرى » (٢)

في هذا الكتاب ، الذي كتبه بالقاهرة بعد عودته من زيارات لبلاد إسلامية ، يتحدث الكواكبي عن مؤتمر عقد في أم القرى (مكة المكرمة) حضره ممثلون عن الأقطار الإسلامية وبعض الضيوف . والكتاب في أسلوب قصصي طريف ، وفي رأي أغلب من كتبوا عن الكواكبي أن قصة المؤتمر

---

(١) المرجع السابق . ص : ٦٧ – ٥٧

(٢) الفقرات مأخوذة من كتاب « أم القرى » لعبد الرحمن الكواكبي ، طبعة المطبعة العصرية بحلب – عام ١٩٥٩ .

إنما هى من نسج خياله ، وفى رأى البعض أن القصة لها أصل واقعى وأزاد عليه الكواكبى .

ويقول الكواكبى فى مقدمة مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد فى مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ .. « أما بعد فأقول ، وأنا هو الرحالة المتكنى بالسيد الفراتى : أنه لما كان عهدنا هذا ، وهو أوائل القرن الرابع عشر ، عهداً عم فيه الخلل والضعف كافة المسلمين ، وكان من سنة الله فى خلقه أن جعل لكل شىء سبباً ، فلا بد لهذا الخلل الطارىء ، والضعف النازل من أسباب ظاهرية غير سر القدر الخفى عن البشر ؛ فدعت الحمية بعض أفاضل العلماء والسراة والكتاب السياسيين للبحث عن أسباب ذلك ، والتنقيب عن أفضل الوسائل للنهضة الأسلامية ، فأخذوا ينشرون آراءهم فى ذلك فى بعض الجرائد الإسلامية الهندية والمصرية والسورية والتتارية ، وقد اطلعت على كثير من مقالاتهم الغراء .. ثم بدا لى أن أسعى فى توسيع هذا السعى بعقد جمعية من سراة الإسلام فى مهد الهداية أعنى « مكة المكرمة » ...

ثم ارتحل (فى كلامه الوارد بالمقدمة) من موطنه بأحد مدن الفرات وطاف ببلدان عربية . وتقابل مع من دعاهم فى مكة ، ولم يتخلف عن الاجتماع سوى (الأديب البيروتى) ، أما المجتمعون فكانوا : السيد الفراتى ، الفاضل الشامى ، البليغ القدسى ، الكامل الاسكندرى ، العلامة المصرى ، المحدث اليمنى ، الحافظ البصرى ، العالم النجدى ، المحقق المدنى ، الأستاذ المكى ، الحكيم التونسى ، المرشد الناسى ، السعيد الانكليزى ، المولى الرومى ، الرياضى الكردى ، المجتهد التبريزى ، العارف التاتارى ، الخطيب القازانى ، المدقق التركى ، الفقيه الأفغانى ، الصاحب الهندى ، الشيخ السندى ، والإمام الصينى .

وعقد المؤتمرون اثنى عشر اجتماعاً ، وفى الاجتماعين السابع والثامن (الأربعاء الرابع والعشرين من ذى القعدة سنة ١٣١٦ هـ ، والخميس الخامس والعشرين) عرض السيد الفراتى أسباب فتور المسلمين وهى :

أولا : أسباب دينية : كتأثير عقيدة الجبر فى أفكار الأمة ، وتأثير المزهدات فى السعى والعمل وزينة الحياة ، وفتن الجدل فى العقائد الدينية ، والذهول عن سماحة الدين وسهولة التدين به ، وتشديد الفقهاء المتأخرين فى الدين خلافاً للسلف ، ثم هاجم الدجالين والمدسوسين على الدين وتهاون العلماء فى واجباتهم وكثرة الآراء فى الدين ، والتعصب للمذاهب ولآراء المتأخرين وتكليف المسلم نفسه ما لا يكلفه به الله وتهاونه فيما هو مأمور به (١) .

ثانياً : أسباب سياسية : مثل تفرق الأمة إلى عصبيات وأحزاب سياسية وحرمان الأمة من حرية القول والعمل وفقدانها الأمن والأمل ، وفقد العدل والتساوى فى الحقوق بين طبقات الأمة ، إبعاد الأمراء والنبلاء الأحرار وتقريبهم المتملقين والأشرار ، وفقد قوة الرأى العام بالحجر والتفريق ، وانغماس الأمراء فى الترف ودواعى الشهوات ، وحصر الاهتمام السياسى بالجباية والجندية فقط ... إلخ (٢) .

ثالثاً : أسباب أخلاقية : مثل الاستغراق فى الجهل والارتياح إليه ، والإخلاد إلى الخمول ترويحاً للنفس ، وانحلال الرابطة الدينية ، وفساد التعليم والوعظ والخطابة والإرشاد ، وفقد التربية الدينية والأخلاقية ، فقد القوة المالية الاشتراكية بسبب التهاون فى الزكاة ، وغلبة التخلق بالتملق تزلفاً وصغاراً وتفضيل الارتزاق بالجندية والخدم الأميرية على الصنائع ، وتوهم أن علم الدين قائم فى العمائم وفى كل ما سطر فى كتاب ، ومعاداة العلوم العصرية ارتياحاً للجهالة والسفالة ... وغيرها (٣) .

ثم هاجم العراق الإدارة العثمانية وسوء معاملتها للعرب .. « كما يستدل عليه من أقوالهم التى تجرى على ألسنتهم مجرى الأمثال فى حق العرب كاطلاقهم على عرب الحجاز (ديلنجى عرب) أى العرب الشحاذين

---

(١) عبد الرحمن الكواكبى . أم القرى ص : ١٥٨ - ١٦٩ .
(٢) المرجع السابق ص : ١٦٠ - ١٦١ .
(٣) المرجع السابق . ص : ١٦١ .

وإطلاقهم على المصريين (كور فلاح) بمعنى الفلاحين الأجلاف .. » (١) .

وفى الاجتماع الثامن يستكمل السيد الفرانى أسباب فتور المسلمين ، فيقول إن من أعظمها غرارتهم أى عدم معرفتهم كيف يحصل انتظام المعيشة لأنه ليس فيهم من يرشد إلى شيء من ذلك ، بخلاف الأمم السائرة فان من وظائف خدمة الأديان عندهم رفع الغرارة ، أى إلى الحكمة فى شئون الحياة . وأما الأقوام الذين ليس عندهم خدمة دين أو الشراذم الذين لا ينتمون لخدمة دينهم ، فمستغنون عن ذلك بوسائل أخرى من نحو : التربية المدرسية ، والأخذ من كتب الأخلاق ، وكتب تدبير المنزل ، ومفصلات فن الاقتصاد والتواريخ المتقنة ، والرومانات الأخلاقية والتمثيلية ، أى كتب الحكايات الوضعية ، ونحو ذلك مما هو مفقود بالكلية عند غير بعض خاصة المسلمين ... (٢) .

ثم يتكلم عن أنواع من الغرارة ، فيقول إننا لا نرى ضرورة للإتقان فى الأمور ، وتوهمنا أن شئون الحياة سهلة بسيطة ، واللوث فى الأمور أى تركها بلا ترتيب ... » وخلاصة البحث أن الغرارة من أقوى أسباب الفتور ... إن لانحلال أخلاقنا سبباً مهماً آخر أيضاً يتعلق بالنساء وهو تركهن جاهلات على ما كان عليه أسلافنا ... كأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها التى أخذنا عنها نصف علوم ديننا ، وكمئات من الصحابيات والتابعيات راويات الحديث والمتفقهات ... وهذه حجة دامغة ترغم أنف غيرة الذين يزعمون أن جهل النساء أحفظ لعفتهن ؛ فضلا عن أنه لا يقوم لهم برهان على ما يتوهمون ، حتى يصح الحكم بأن العلم يدعو للفجور وأن الجهل يدعو للعفة ... (٣) .

وفى الاجتماع الثانى عشر (يوم الإثنين التاسع والعشرين من ذى العقدة سنة ١٣١٦) وفى هذا الاجتماع قرىء القانون الذى يقرر فى الاجتماعات الثلاثة السابقة ، وجاء فيه « قد تقرر فى الجمعية المنعقدة فى مكة المكرمة فى ذى العقدة

---

(١) المرجع السابق . ص : ١٦٩ .
(٢) المرجع السابق . ص : ١٧٣ - ١٧٤ .
(٣) المرجع السابق . ص : ١٧٨ - ١٧٩ .

صنة ست عشرة وثلاثمائة وألف ، المسماة (جمعية أم القرى) ، النتائج الآتية :

١ — المسلمون فى حالة فتور مستحكم عام

٢ — يجب تدارك هذا الفتور سريعاً ، وإلا فتنحل عصبيتهم كلياً .

٣ — سبب الفتور تهاون الحكام ، ثم العلماء ، ثم الأمراء .

٤ — جرثومة الداء الجهل المطلق .

٥ — أضر فروع الجهل : الجهل فى الدين .

٦ — الدواء هو : أولا تنوير الأفكار بالتعليم ، ثانياً إيجاد شوق للترقى فى رءوس الناشئة .

٧ — وسيلة المداواة عقد الجمعيات التعليمية القانونية .

٨ — المكلفون بالتدبير هم حكماء ونجباء الأمة من السراة والعلماء

٩ — الكفاءة لإزالة الفتور بالتدريج موجودة فى العرب خاصة .

١٠ — يلزم تشكيل جمعية ذات مكانة ونفوذ فى دائرة القانون الآتى البيان باسم (جمعية تعليم الموحدين) (١) .

ثم عرض تشكيل الجمعية من مائة عضو ، منهم عشرة عاملون وعشرة مستشارون ، وثمانون فخريون ، ويرتبط بالجمعية أعضاء محتسبون لا يتعين عددهم . وشرح مبانيها وماليتها ووظائفها وسياستها ومظهرها وقوتها .

• • •

ومات الكواكبى فجأة فى عام ١٩٠٢ بالقاهرة ودفن بها ، مات الرجل الذى ثار على العثمانيين وحكمهم ، ووجه أنظار المسلمين إلى دينهم وضرورة إبعاده عن السياسة . وضع النقط فوق الحروف لكشف الاستبداد وأساليبه ، ودور التربية والتعليم فى التخلص من الاستبداد . وكانت صيحته فى إصلاح الدين وتوحيد كلمة العرب لا تقل فى قوتها عن دعوة الشيخ محمد عبده .

---

(١) المرجع السابق ص : ١٩١ — ١٩٢

محمد عبده

الأزهر ... المركز الذى يفد إليه ألوف من المسلمين من أطراف الدنيا ... حياة المجاورين تعسة قذرة ... كتب قديمة بالية لا تجد لها مكاناً فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلا تحت عمائم علماء الأزهر الذين التفوا بأثواب الجمود والتخلف والرجعية والتيبس الفكرى ...

وكان الدين شعارهم الذى يحتمون به وهم معاول هدم الدين الحنيف . الأزهر ، الجامعة الإسلامية الكبرى فصلت نفسها عن الدنيا متقوقعة فى ركن ضيق من التفكير القاصر البالى . وقد أرضى هذا حكام مصر والسلطات الإنجليزية .

وتيارات سياسية تموج وتحاول أن تحرر مصر من المستعمرين ، ولكن كانت للشيخ فلسفة سيرت أعماله وأقواله ، فوقف مدافعاً عن الإصلاح الاجتماعى كأساس للتقدم . وأغضب السياسيين ، ونقم عليه الخديو توفيق ، وحاربه علماء الأزهر ... وامتلأت الصحف والمجلات المعارضة له والمأجورة برسوم ساخرة منه محطة لقدره . وصمد الشيخ حتى عندما ألبسوه قبعة وأوقفوه وسط حسناوات فى صورة . .

ومع ذلك فقد كون الشيخ مدرسة للتفكير الفلسفى والإصلاح الاجتماعية والسياسى ... وفى الصفحات القادمة سأتعرض فى غير تعمق لوجهة نظر واحد من دعامات الدعوة للإصلاح فى أواخر القرن التاسع عشر . دعوة تتخطى حدود مصر إلى العالم العربى والإسلامى ، دعوة مؤمنة بأن للدين رسالة أسمى مما ظنها مشايخ الأزهر . قال محمد عبده « ما رأيت بلداً جعل فيه الدين دكاناً مثل هذا البلد » .

ولد محمد عبده عام ١٨٤٩ بحصة شبشير من قرى إقليم الغربية ، ولكنه نشأ بقرية محلة نصر من قرى شبراخيت باقليم البحيرة (١)، وقد علمه أبوه فى الكتاب ، ثم أرسله إلى الجامع الأحمدى فى طنطا . وقاسى الأمرين من جفاف

(١) عباس محمود العقاد : محمد عبده ، ص : ٦٩ .

المادة التى كان يدرسها ومن شكلية وسطحية التعليم . وعول على ترك التعليم والاتجاه إلى الزراعة ، وعارضه أبوه ، فهرب إلى بلدة فيها بعض أقاربه . وشاء القدر أن يلتقى بشيخ صوفى هو الشيخ درويش خضر خال أبيه ... « فينقلب محمد عبده كأنه شخص آخر حتى كأن عصا سحرية مسته ، وهنا يتجلى فعل المصادفات فى حياة العظماء ، فلولا هرب محمد عبده إلى هذه البلدة وملاقاته لهذا الشيخ ، لكان محمد عبده المشهور هو محمد عبده المغمور الذى لا يعرفه أحد إلا بلده ، ولكان شأنه شأن أى فلاح فى أى بلدة لا يسجل اسمه إلا فى دفتر المواليد ودفتر الوفيات » (١).

وعن الشيخ درويش بدأ محمد عبده يفهم النحو ، ولم يستطع فهمه قبل ذلك . وعن الشيخ تلقى درساً آخر فى « القيم » وعرف وآمن أن الإنسان بعمله الصالح وأن اسم الإسلام لا يصح أن يكون مخبأ ترتكب فيه الجرائم ، فالإسلام عقيدة وعمل لا ألفاظ سيالة تنتهى بمجرد النطق ، وأن المسلمين محاسبون على أعمالهم كغيرهم ، وأن أكثر من يسمون مسلمين لا يصح أن يدخلوا فى عداد المسلمين ، وأن التعاليم الفاسدة ليست من الإسلام فى شىء ، وأن أساس الإسلام وأساس العقيدة الصحيحة هو القرآن وحده ، وأن خير عادة هى تفهم معانيه .

وعاد محمد عبده إلى الجامع الأحمدى بعد أن أقنعه الشيخ درويش بأن العلم سهل ميسر ، وكان محمد عبده يريد من أعماقه الصفاء الروحى والتعلم ، سبعة أيام أمضاها مع الشيخ درويش غيرته تماماً ، فتقدم فى دراسته !. والتحق بالجامع الأزهر . ورأى وعاش بين الطلبة ، واحتك بعن كثب بالعلماء والمتفقهين فى الدين

الأزهر

ودخل الأزهر ... « إذا دخل الداخل إلى صحن الأزهر وجد فيه بقايا الكراث والفجل وقشور البصل وفضلات الخبز العفنة وجلود الفسيخ وقمامات

(١) أحمد أمين (المرجع الأسبق) ، ص : ٢٧٣ — ٢٨٤ .

الكنس من مواضع النوم أكواماً . وإلى جوانبها ما يراق من مياه الشرب المأخوذة من الصهاريج ، وما تحمله النعال من وحل الطريق حيث يتأبط المجاور مداسه بلانفض ولا تنظيف . إذا وصل زائر إلى غرف السكنى فى الأروقة وجد هذا يغسل ثيابه ، وبهريق الماء بين يديه ، فيمنعه الكسل أن يمضى بها إلى البالوعات . وذاك يطبخ والدخان يسود وجه الحائط داخل المسكن . وذاك يغسل آنية ويريق ماءها المخلوط بالدهن والزيوت . وقد يحملهم الكسل على ترك غرف النوم الأسبوع والأسبوعين بلا كنس فيتراكم فيها التراب مع بقايا المأكولات .. كان المجاورون ينامون مزدحمين رأس الواحد عند رجل أخيه ومعهم فيها على ضيقها متاعهم وخبزهم وثيابهم وخزائن كتبهم وأدوات الطبخ والوقود .. كان من أكثر الأمراض إنتشاراً بين المجاورين الجرب والرمد . وأهم ما كانوا يستعملونه لعلاج الجرب هو كبريت العامود . ولا تسل عن الدرس إذا كان بين طلبته جربان قد طلى جلده بالكبريت و القطران . فقد يختلط هذا بسواه ويزدحمون ، وبالله إذا كان الفصل فصل قيظ ، فهناك تنتشر تلك الروائح الكريهة ، وتسرى العدوى إلى معظم المجاورين ... وكان يخفف من آلام الجرب على الطلاب ، أن مشايخهم كانوا يقولون لهم « إن الجرب علامة الفتوح ، وأن الذى لا يلحقه الجرب من المجاورين بعد بينهم مترفاً ، ولا يؤمل فيه النجاح (١)» .

وأنفق محمد عبده فى الأزهر زهاء ثلاث سنين دون أن يجنى فائدة تذكر من الدروس التى كان يجلس للاستماع إليها . وكان مرجع ذلك إلى طريقة الدروس السائدة ،طريقة جامدة عقيمة تفرض على طلاب العلم مختصرات لا تفهم إلا بشروح وحواشى وتقارير ، فالمتن له شرح ، وللشرح حاشية ، وللحاشية تقرير ... ثم تزدحم ذاكرة الطلبة بحشد مشوش من المعلومات النحوية المتشابكة والتدقيقات اللفظية التى تزهق الفكر وتعوقه عن النمو (٢) .

---

(١) محمد صبيح : محمد عبده ، ص : ٦٥ - ٦٦ .

(٢) عثمان أمين : رائد الفكر المصرى ، ص : ٢٠ .

ولم يسترح محمد عبده لما يدرس فى الأزهر ، فكان التعليم فيه يقوم على الفلسفة اللفظية ، ويعلم طالبه الدقة فى الفهم والقدرة على الجدل . وهذه محمدة ولكن مع الأسف لا تستخدم هذه الدقة ولا الجدل إلا فى الألفاظ وتجعل صاحبها غارقاً فى الاحتمالات بما يراه من الحواشى والشروح من التأويلات ، فكل شىء يجوز حتى دخول الجمل فى البندقة — على حد تعبير الشيخ محمد عبده نفسه — يتم الطالب الدراسة فيه فيخرج فاهماً لبضعة كتب ، أما الدنيا وشئونها فانه يجهلها كل الجهل ، فلا جغرافية ولا تاريخ ولا طبيعة ولا كيمياء ولا رياضة ، فكل هذه علوم أهل الدنيا ، وما للآخرة والدنيا .. ومع هذا فالنزاع على الجراية كثير وعلى الوظائف الصغيرة أكثر ، كل شىء خارج عن المألوف كفر أو حرام أو مكروه ، فتحويل (الميضأة) القذرة إلى حنفيات حرام ، وذهاب للبركة !!! وقراءة كتب فى الجغرافية أو الطبيعة أو الفلسفة حرام ، ولبس (الجزمة) بدعة (١).

وكره محمد عبده كتاباً ، فطبخ به عدساً ... وتطلعت نفسه إلى علوم جديدة . وقد ألمت به أزمة نفسية ، فمارس ضروب الزهد والرياضة وحاول إعتزال الناس ، ولكن الشيخ درويش أنقذه من هذه الأزمة الصوفية . ثم التقى محمد عبده بجمال الدين الأفغانى ، فوجد فيه ما كان يبحث عنه ، ووجد الأستاذ فى تلميذه مساراً لتيار آرائه . وكان جمال الدين شخصية فذة جريئة جذبت إليها جماعات الشبان المتحمسين فى استنبول . وفى القاهرة اتصل به محمد عبده ، وسعد زغلول ، وإبراهيم اللقانى ، وإبراهيم الهلباوى ، ومحمود سامى البارودى ، وإبراهيم المويلحى وأديب إسحق وغيرهم .

عرف عن جمال الدين دعوته إلى (الجامعة الإسلامية) التى ترمى إلى إتحاد جميع الشعوب التى تعيش فى كنف الإسلام ، وكان يقول إن الدول الغربية تنتحل الأعذار فى اعتدائها على البلاد الإسلامية وإذلالها قائلة إن الممالك

---

(١) أحمد أمين (المرجع السابق) : ص : ٧٩ .

الإسلامية هذه : « إنما هى من الانحطاط والهوان بحيث لا تستطيع أن تكون قوامة على شئون نفسها بنفسها » (١).

وتفتحت عينا محمد عبده على آفاق واسعة بعد أن زالت الحجب التى أسدلتها دراسته فى الأزهر ، وتحول من تصوف خيالى إلى تصوف فلسفى عملى ورغبة صادقة فى العمل للأمة ، وشوقاً إلى الإصلاح الدينى والخلقى والاجتماعى واقترب قطبا الإصلاح : الأفغانى ومحمد عبده ، أمامهما هدف واحد وأمل واحد ، يترفعان عن الناس فى غير كبر ، ويستصغرانهم فى عطف من غير احتقار ... يقول محمد عبده » : إن أبى وهبنى حياة يشاركنى فيها أخواى (على ومحروس) ، والسيد جمال الدين وهبنى حياة أشارك فيها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى ، والأولياء والقديسين » .

وبعد أن تخرج محمد عبده فى الأزهر بشهادة العالمية عام ١٨٧٧ ، عين مدرساً فى دار العلوم ، وخرج عن المألوف فدرس مقدمة ابن خلدون . وألف كتاباً فى « علم الاجتماع والعمران » ، وقد فقد الكتاب . وكان قد بدأ يكتب فى جريدة الأهرام منذ أول سنة ظهورها عام ١٨٧٦ ، وزاد اتصاله بالصحافة بعد أن نال العالمية ، وبعد أن نزل الخديو إسماعيل ، وتولى توفيق . ونفى السيد جمال الدين ، وتولى رياض باشا رياسة النظار . وأمر رياض الشيخ محمد عبده باصلاح « الوقائع المصرية » ورياسة إدارة المطبوعات . وكان الشيخ مؤيداً لرياض باشا فى سياسته التى رامت الإصلاح التدريجى .

كفاحه

وكانت له الفرصة السانحة للنقد الاجتماعى عن طريق الصحافة ، فكتب مهاجماً العادات والتقاليد ، والاتجاهات غير السليمة فى الدين ، ولكنه كان بعيداً عن السياسة فكان الشيخ معنياً بأمر التربية والتعليم ويلح فى إصلاحها ويحطم العادات البالية ويدعو إلى احترام القوانين . كان يؤمن بأن التعليم قادر على خلق طبقة واعية مستنيرة تستطيع أن تحقق الحكم النيابى الصحيح . وكان

(١) عثمان أمين (المرجع الأسبق) ، ص : ٣٣ .

يؤمن أنه — فى وقته — لا جدوى من النظام النيابى طالما الشعب جاهل متخلف وأن الحرية الشخصية والاجتماعية ضارتان ما لم تدعما بالتربية حتى لا يسقط الناس فى الخمر والقمار وهتك الحرمات والمجاهرة بالإلحاد ، وكان يقول : « إنما ينهض بالشرق مستبد عادل » رداً على من يرى أنه إنما ينهض بالشرق حكم نيابى شامل . وكان الشيخ الأمام يرى أن هذا المستبد العادل قادر أن يفعل فى خمسة عشر عاماً الأعاجيب ، وينقل الأمة خطوة واسعة إلى الأمام .

وقد عارض الشيخ رأى أحد تلاميذ السيد جمال الدين ، هو شاب سورى اسمه أديب إسحق كان على درجة عالية من الثقافة والذكاء ، وكان يؤمن بأن الحكم النيابى هو الأمل الوحيد فى الإصلاح ، فان كان الناس لم يتعودوه فليتعودوه ، وأنه لا بأس من مضى قليل من الوقت حتى يألفه الناس ويسيروا عليه . وكان لأديب إسحق جريدتان « مصر » و «التجارة» . وكما أيد محمد عبده رياض باشا ، كان أديب يؤيد شريف باشا ، معتقداً أنه تقدمى ، ورياض رجعى . وقد أغلق رياض جريدتى أديب إسحق . وعندما ألف شريف مجلس النواب عينه سكرتيراً فيه ، ولكن الموت عاجله وهو فى ريعان شبابه ، فى سن التاسعة والعشرين يتفجر ذكاء وعبقرية وحماساً .

وقامت الثورة العرابية ، وقبض على الشيخ بتهمة اشتراكه فيها ، وسجن ثلاثة أشهر عجاف قاسية . ثم حكم عليه بالنفى ثلاث سنوات ، فرحل إلى بيروت عام ١٨٨٣ والاحتلال البريطانى فى مصر .

ثم دعاه أستاذه جمال الدين ليوافيه فى باريس ، وهناك أنشأ مجلة « العروة الوثقى » ، ويلاحظ أن مقالاته فى « العروة الوثقى » اتسمت بدفاعه لا عن مصر المحتلة فقط ، بل عن العالم الإسلامى كله ، ملهباً الشعور بالعزة عن طريق العقيدة الدينية السليمة . وزار لندن ، مدافعاً عن استقلال مصر ، ولم يجد آذاناً تصغى ، وعاد إلى باريس ، واحتجبت « العروة الوثقى » عن الظهور ولم يزد عمرها عن ثمانية أشهر .

ثم عاد إلى بيروت ، بعيداً عن غليان وثورة السيد جمال الدين ، فترك

السياسة متخذاً أسلوب طبيعته فى الإصلاح العقلى والدينى والاجتماعى ، بالتأليف والتدريس وتفسير القرآن . ووضع لائحة فى إصلاح التعليم الدينى فى مدارس المملكة العثمانية، كما رفع لائحة أخرى إلى والى بيروت لإصلاح الأحوال فى سورية .

وفى مصر توسل له الكثيرون عند كرومر والخديو توفيق ، منهم الأميرة نازلى التى أعجبت بكتاباته ، وكانت مهتمة بالسياسة . وعفى عنه ، وعاد من المنفى بعد أن اغترب ست سنوات لأن الخديو كان غاضباً عليه .

وعاد إلى مصر ... الخديو مسالم الإنجليز ، والسلطة كلها بأيديهم حتى فى الأزهر . ولم يجد سنداً يحميه فى دعوته الإصلاحية . واضطر أن يسالم الإنجليز آملا أن استنارة الشعب وفهمه لحقوقه وواجباته سيرغمان الإنجليز على الجلاء . وكانت وسيلته إلى ذلك إصلاح التعليم . بل هو ينقد أستاذة جمال الدين لاهتمامه الكلى بالسياسة دون الإصلاح الداخلى، وينقد الأميرة نازلى انصرافها إلى المجهود السياسى وعدم تأسيسها جمعية للنهضة النسوية مثلا .

ووقف محمد عبده يتزعم الرأى بأن الإصلاح الداخلى الحقيقى هو وسيلة الجلاء ، ضد مصطفى كامل الذى يتزعم الرأى بأنه لا أمل فى الإصلاح الحقيقى إلا بزوال الاحتلال أولا .

وتقلب محمد عبده فى وظائف غير التى كان يريدها ، فقد أراد نظارة دار العلوم أو يعمل أستاذاً بها ، فاذا به يعين قاضياً أهلياً ثم مستشاراً فى محكمة الاستئناف . وفى عام ١٨٩٢ مات توفيق ، وتولى بعده الخديو عباس . وتقرب منه الشيخ فقد عرف عنه الحماس لمناهضة الاحتلال معضداً من بقايا رجال الثورة العرابية وتركيا وفرنسا ، وحاول الشيخ إصلاح الأزهر ...

إصلاح الأزهر

أراد الإمام الشيخ أن يكون الأزهر جامعة بالمعنى الصحيح ، يتلقى فيها الطلاب الثقافة الصحيحة التى تعدهم لأن يكونوا رجالا عاملين ، فيكون منهم لمصر والإسلام قضاة ذوو نزاهة وأساتذة باحثون ، وعلماء متخصصون ومرشدون مخلصون ، يعملون على بث الآراء الدينية السليمة ، والمعانى

الأخلاقية الرفيعة ، ومكافحة الخرافات والقضاء على البدع والأباطيل(١) . فكلف الخديو الشيخ بوضع مشروع للإصلاح . وشكل الشيخ مجلس إدارة من كبار علماء المذاهب فى الأزهر ونلخص آراءه فى الإصلاح فى :

١ — تحديد مدة الدراسة فى الأزهر : فكان المجاورون يمضون الأعوام الطويلة فى الأزهر دون رقابة أو اهتمام من أولى الأمر . وقد حدد القانون (الذى اقترحه مجلس الإدارة الجديد) بدء السنة الدراسية ونهايتها ، وأيام العطلات والمسامحات .

٢ — نظام التدريس والامتحان : اقترح أن تعقد للطلبة امتحانات سنوية وكان هذا نظاماً جديداً ، فلم يزد عدد الممتحنين كل عام عن ستة ، وهؤلاء يتقدمون للامتحان بالوساطات والشفاعات والرجوات وإلحاح الملحين ، واقترح المشروع كذلك مكافأة الطلبة المتفوقين من بين الممتحنين ، بغرض بث روح التسابق فيهم وترغيبهم فى التحصيل .

٣ — الكتب : تلغى بعض الكتب العقيمة كالشروح والحواشى والتقارير التى كان من شأنها أن تشوش على الطلاب موضوعات العلوم التى يدرسونها ، وتستبدل بهذه الكتب أخرى أنفع وأقرب إلى مدارك الطلاب .

٤ — المواد الدراسية : تقسم العلوم إلى : علوم مقاصد وتطول مدة الدراسة فيها ، كالتوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصول والأخلاق ؛ وعلوم وسائل كالمنطق والنحو والبلاغة ومصطلح الحديث والحساب والجبر وهذه العلوم بقسميها يمتحن فيها طلاب شهادة العالمية .

٥ — مواد جديدة : يقرر إدخال دروس ومحاضرات جديدة فى علوم التاريخ والتاريخ الطبيعى والرياضيات والجغرافية والفلسفة والاجتماع وغيرها .

٦ — الرعاية الصحية : توفير الشروط الصحية ، وتعيين طبيب ، وبناء مستشفى لطلبة العلم الفقراء .

ولكن حدث أن وقف الشيخ فى مسألة استبدال أرض للأوقاف فى الجيزة

(١) عثمان أمين (المرجع الأسبق) ، ص : ١٨٣ — ١٨٧ .

ضد الخديو الذى أراد مصلحة مالية فيها ، وقبل إنه تضايق من الشيخ فألقى بالأحجار أمام المشروع ، كما أن مشايخ كثيرين من الأزهر وقفوا ضده ، فقد تولى الشيخ سليم البشرى مشيخة الأزهر فى يوليه ١٨٩٩ ، وكان محافظاً مناوئاً لكل فكرة جديدة ، فعطل أعمال مجلس الإدارة ، وعدل عن عقد الامتحانات السنوية . ثم تولى الشيخ على البيلاوى مشيخة الأزهر فى إمارس عام ١٩٠٣ ، وكان على وفاق مع الشيخ محمد عبده ، وعاد تيار الإصلاح و انتظمت الدراسة غير أن إشاعة سرت أن الخديو لام البيلاوى لأنه يعمل فى الأزهر كما يريده المفتى الشيخ محمد عبده .

وتكون فى الأزهر حزب معارض قوى يتزعمه الشيخ محمد الرفاعى ، وفى عضويته شيخ رواق الصعايدة الشيخ المنصورى ، وهاجم الحزب الأستاذ الإمام لأنه أصدر فتوى تجيز للمسلم طعام أهل الكتاب ولبس (البرنيطة) إذا إقتضته ظروف الحياة أن يعيش بينهم . وأخذ الحزب يشيع أن مفتى الإسلام يعمل على التأليف بين المسلمين والمسيحيين ... وأشيع أن الخديو أراد عزل المفتى محمد عبده فعارضه كرومر .

وكثر الهجوم عليه فاستقال من مجلس إدارة الأزهر ... بعد أن يئس من الإصلاح ، ولكنه ترك بذوراً لم تستطع القوى الرجعية أن تنتزعها .. هل كان الأستاذ الشيخ الإمام يتصور أو جال بخاطره أن يصل الأزهر إلى ما وصل اليه عام ١٩٧٠ ، وفيه كليات كالطب والهندسة ، والتربية وكليات للبنات .. الخ ؟

أعتقد أن أحلى أمانيه ما كانت تصل فى طموحها إلى ما وصل إليه الأزهر اليوم فى مناهجه وطرائقه وإمكاناته وطلبته وحياتهم وأساتذتهم .. وفوق كل هذا رسالته وفلسفته .

* * *

جاء رفاعة الطهطاوى بزاد جديد واتجاهات حديثة من الغرب قاصداً الإصلاح ، واندفع على مبارك فى حماس أشعلته خبرة قاسية إلى إصلاح التعليم كركيزة للنهوض بوطنه . وجاء الشيخ محمد عبده ليقول إن هذا النهوض

مستحيل الحدوث ما لم يعاد النظر فى مفاهيمنا عن الدين حتى نعود به من طريقه السائر فيه إلى حيث يجب أن يسير هادياً بالحق والحرية والعدل والخير والجمال

وقف الشيخ أمام كنيسة موريالى القديمة فى صقلية معجباً بجمالها وقدمها ، ويقول : « إن العرب ، رحمهم الله ، لم يمسوا هذه الكنيسة بسوء مع عظمة سطوتهم ، وامتداد ملكهم فى صقلية » ، ثم يتساءل عن العرب ... أين هم ؟ ويجيب « يمكن أن يقول قائل : إنهم فى جزيرة العرب ، أو فى الشام أو فى العراق ، أو فى مصر ، أو فى تونس والجزائر : أو فى المغرب الأقصى ... ألم يكفك كل هذا العدد فى أكثر من ألف بلد ، حتى تقول أين هم ؟ ولكن أقول له : إنما يكون القوم أولئك القوم ، إذا بقيت لهم أخلاقهم وحياة أرواحهم ، فان كان لم تبق سوى أشباح تشبه أشباحهم ، فليسوا منهم ، ولى الحق أن أقول عن العرب أين هم ؟ » .

« أما قومى فأبعدهم عنى ، أشد قرباً منى ، وما أبعد الإنصاف منهم ... يظنون بى الظنون ؛ بل يتربصون بى ريب المنون ، تسرعاً منهم فى الأحكام ، وذهاباً مع الأوهام ، وولعاً بكثرة الكلام ، وتلذذاً بلوك الملام . أقول فلا يسمعون وأدعو فلا يستجيبون ، وأعمل فلا يهتدون ، وأريهم مصالحهم فلا يبصرون ، وأضع أيديهم عليها فلا يحسون ، بل يفرون إلى حيث يهلكون ، شأنهم الصياح والعويل ، والصخب والهويل ، حتى إذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل فى مثلهم :

لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا

وأقول .. ولا من الخير .. وإنما مثلى فيهم مثل أخ جهله إخوته ، أو أب عقته ذريته أو ابن لم يحن عليه أبواه وعمومته مع حاجة الجميع إليه وقيام عمدهم عليه ، يهدمون منافعهم بإيذائه ولو شاءوا لاستبقوها باستبقائه ، يسعى ويدأب ليطعم من يلهو ويلعب ... على أنى أحمد الله على الصبر وسعة الصدر إذا ضاق الأمر ، وقوة العزم ، وثبات الحلم . وإن كنت فى خوف من حلول

الأجل قبل بلوغ الأمل خصوصاً عندما أرى أن العمل فى أرض ميتة لو ذابت عليها السماء مطراً لما أنبتت زرعاً ولا أطلعت شجراً . أفزع لذكرى هذا وأجزع ، ويكاد قلبى ينقطع » .

أب رءوم يخشى على أولاده ، وأولاده يتسابقون فى النكاية به والسخرية منه وتلفيق التهم له . وهو صابر جامد حليم ، يحاول بالحب والإيمان أن يحيى الأرض الميتة . واتهموه أنه متعاون مع كرومر الإنجليزى تارة ، ومع الخديو تارة أخرى ، وأنه رجعى ، زنديق ملحد كافر خارج على الدين ، صاحب البدع التى اهتزت لها عمائم مشايخ الأزهر ... هو المارق الفاسد المفسد الملعون فى الأرض والسماء .

وما كان يريد إلا خير مصر والعرب والمسلمين فى غير تعصب دينى نهى عنه الدين الحنيف . كان يريد من الإسلام سماحته التى عرف بها فى قرنيه الأول والثانى قبل أن تغزوه الخزعبلات والتعصبات العمياء والعادات المدسوسة عليه . رفع القرآن ووجد فيه أعدل حكم ، لكن المشايخ المناوئين له فسروا شروحه تفسيرات منحرفة .

وتحدى الأستاذ الإمام القوة فهاجم أسطورة محمد على فى مقال طويل قائلا : إنه يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى حتى انحط الكرام وساد اللئام ... وتمتع الأجنبى بحقوق الوطن التى حرم منها ، وعاش الوطنى غريباً فى داره ، فاجتمع على سكان البلاد الرسمية ذلان : ذل ضربته الحكومة الاستبدادية وذل ساسهم الأجنبى إياه ... ثم يتساءل هل فكر محمد على فى بناء التربية على قاعدة الدين أو الأدب ؟ وهل خطر فى باله أن يجعل للأهالى رأياً فى الحكومة فى عاصمة البلاد أو أمهات الأقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل ؟

طالب الأستاذ الإمام فى جرأة بالإصلاح ، وضيع مشايخ الأزهر أجيالا فى مناقشة لفظة أو تخريج ما أو تفسير كلمة ما .. محاولات ومناقشات ليس

وراءها نفع ولا فائدة . وحاول الشيخ الإمام أن ينبهم إلى ما هم فيه من غفلة . ولكن تيارات الرجعية والجمود والتيبس كانت أقوى منه .

ومع ذلك فقد كون الشيخ محمد عبده مدرسة فكرية ظلت تعمل ، ونجنى اليوم ثمارها .

وفى ١١ يوليو سنة ١٩٠٤ أسلم الشيخ روحه . ولكن يظل يعمل بأفكاره.